

صفحات من تاريخ الاخوان

التاريخ السري للمعتقل

المختار الاسلامى

صفحات من تاريخ الاخوان

أحمد رائف

صفحات من تاريخ الاخوان

التاريخ السري للمعتقل

المختار الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص ب : ١٧٠٧ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون .. انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار .. مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء .. وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا اخرنا الى اجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا اقسمتم من قبل ما لكم من زوال .. وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال .. وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال .. فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله .. ان الله عزيز ذو انتقام .. يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار .. وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد .. سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار .. ليجزي الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب .. هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر أولو الألباب » .

صدق الله العظيم

(سورة ابراهيم ٤١ ــ ٥٢)

الإهداء

الى أشقاء السجن

الذيـن تحملوا ضراوة المحنة وآلام الغربة في ايمـان وصبر . ذكرى أيام قضيناها هناك وراء السدود والقيـود نرجو أن تكون في ميزان الحسنات يوم الحساب .

والله من وراء القصد ..

احمد رائف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان لا بد من قدر غير قليل من الشجاعة حتى امسك القلم واخط الصفحات التي بين يدي القارىء الكريم .. ففي هذا الكتاب قصة طغيان أجهزة الأمن ووصولها الى أبعد مدى في العبث بأرواح الناس وامنهم ، حتى أحالوا نهار مصر الى ليل طويل بالغ الحلكة شديد الوطأة ..

ولعلي اذ أقص عليكم قصة ما حدث لي من لحظة أن طرق بابي ضابط المباحث عند الفجر حتى قدر لي ان أخرج حيا بعد سنوات .. اقول لعلي بهذا اعطي علامات تضيء لنا طريقا لا بد من ان نسلكها كمجتمع ، آن له أن يأخذ مكان القيادة والريادة .. بعد نوم طويل بعضه في سراديب الشيطان الملتوية حيث أودعت طليعة هذا الشعب بالسجون والمعتقلات .. وبعضه الآخر في جحور الخوف المحض والانتظار الطويل ..

ويأتي هذا الكتاب على اعقاب فترة طويلة من الاستبداد السياسي وحكم الفرد في مصر .. وقد طويت هذه الصفحة وفتحت بدلها أخرى جديدة نرجو لها أن تزدهر وتعيد الى مصر ما فاتها من خير كثير ..

هذا الكتاب للناس جميعا .. صغيرهم وكبيرهم .. رجالهم ونسائهم .. ان الذي يسمح بالطغيان في بلد ما هم أفراد الشعب .. واذا كان الناس على درجة من الوعي فلن يسمحوا أن يستبد بهم حاكم مهما علا شأنه وذاع صيته .. وأتاهم بالشمس والقمر .. وخلق فيهم العزة والكرامة في الخطب والتصريحات ..

ولا ريب أن العزة الحقيقية في أن يعيش الناس أحرارا في أمن من طرقة الفجر المفزعة .. والعزة الحقيقية في أن يقول كل واحد ما يريد أن يقول .. وأن يعبر عما يختلج في صدره وعقله من أفكار دون خشية السجن أو الاعتقال ..

واني أقدم هذا الى القراء ليعرف الجميع بعضا مما حدث في معتقلات اجهزة الأمن في مصر قبل أن ينتهي عهدها الى غير رجعة ان شاء الله ..

فلتقرأوا هذه الصفحات وليتحول ألكم من هول ما جاء بها الى اصرار عاقل على أن لا يتكرر ما حدث ثانية ..

واذكركم ان سيادة القانون لا تصنعها القرارات بقدر ما يقرها وعي الشعب وحسن ادراكه وطرح الجبن جانبا .. والذي يسكت على الاستبداد لا بد ان ينكوي بناره .. والساكت عن الحق شيطان أخرس ..

فهذا الكتاب ليس للتسلية .. رغم ما فيه من تسلية مرّة .. ولكنه وثيقة ينبغي أن توضع نصب أعيننا دائما .. حتى يقف الناس في الوقت المناسب ويحولون بين الظالم وظلمه .. وكفى ما حدث فقد دفع المجتمع ثمنه غاليا ..

وكنت قد خشيت على هذه الأحداث أن تأخذ سبيلها الى النسيان والضياع فأردت أن أسجل جانبا منها كوثيقة اقدمها الى محكمة التاريخ ..

وقد ارتفعت السنة في هذه الأيام تدين ما كان أيام الاستبداد .. ومن أصحاب هذه الألسنة من اكتوى بنار هذا الاستبداد ، ولهؤلاء نقول لهم : سلام عليكم بما صبرتم .. أما أولئك الذين كانوا يحرضون (الظلمة) ويحلون لهم ما يفعلون على صفحات الصحف ويهللون أثناء سلخ الضحايا ويرسلون صفيرا عاليا والأسود تنهش لحم الشهداء .. ثم ذهب العهد وبدأت حياة جديدة في مصر وبدأوا ينتقدون وينعون على الظلم والظالمين ، فلهؤلاء نقول لهم .. ما أخبثكم وأتعسكم .. أين كنتم آنذاك ؟ ألم تكونوا سدنة هذا الضلال ؟. ألم تكن الأقلام في أيديكم وأنتم للأسف كثر ؟ وجميعكم يعرف ما كان يدور في السجن الحربي وأبي زعبل والقلعة وكانت اجهزة الأمن هي التي تتولى تبليغكم بأنباء التعذيب لتغرس الخوف في نفوسكم..

آن الأوان أن نتذكر هذه الويلات لا لننتقم منها بل لنتحاشاها في مستقبل الأيام .. وقد علمنا الاسلام أن نتسامح مع من آذونا وأن ندعو لهم بالهداية.. فنحن معشر المسلمين دعاة حضارة .. ونحن أولى من غيرنا بالتخلق بأخلاق الإسلام ، ولنحتسب كل ما حدث لنا عند الله سبحانه وتعالى حيث لا يضيع عنده شيء ويثيب المؤمن الصادق على كل ما يصيبه في الحياة .. حتى الشوكة يشاكها .. والأمر كما تعلمون لم يكن فيه شوك بل كانت سياط من عذاب وأسياخ من حديد أحمر ..

وأرجو من الله عز وجل أن يجمعنا على الخير ليس في السجن ولكن في معترك الحياة الفسيح حيث العمـل الدؤوب لرفع كلمة الاسلام .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

احمد رائف

الفصل الأول

خمس دقائق ثم نعود

هذا ما قاله لي الرائد محمد عبد الغفار ترك عندما قبض علي من منزلي في الساعات الاولى من نهار (٢٥) اغسطس سنة ١٩٦٥ . اشهد ان الرجل كان مهذبا في سلوكه معي حتى اودعني معتقل القلعة السياسي مع اشراقة شمس ذلك اليوم العصيب .

كنت قد فرغت من قراءة مسرحية رجال و فئران للمؤلف الامريكي (جون شتاينيك) . . . وكانت الساعة تقترب من الواحدة صباحا عندما دق جرس الباب . . . وكان الطارق سمير الهضيبي ووجدته ممتقع الوجه شارد النظر بادي القلق . . وجلسنا . . وبدأ يذكر ما عنده من أخبار . . ، أخبرني أن يحيى حسين صديقنا الذي يعمل طيارا في شركة الطيران العربية قد اختفى ـ أثناء هبوط طائرته التي يقودها ـ بالخرطوم في طريقها الى أديس أبابا . . . وانتابتني دهشة شديدة لهذا الخبر . . وتذكرت يحيى . . ذلك الصديق الذي تخرج من كلية

الزراعة ثم التحق بمعهد الطيران المدني وصار طيارا وزاد دخله وتزوج زميلة له من الكلية وأنجب بنتين ظريفتين احداهما سمية على ما أذكر الآن بعد مرور كل تلك السنوات .. وكان يعيش حياة هادئة خالية من المنغصات ولم يكن يعاني من مشكلة ما في حدود علمي ..

وسألت سمير : وكيف علمت بهذا الخبر ؟

فقال : انه كان يجلس مع محمد الغنام زوج شقيقته وضياء الطوبجي الذي اخبرهم بذلك .

وسألته : ترى ماذا حدث ليحيى حسين ؟ وأجابني والحيرة تملأه : لست ادري ... وتعددت الاقوال والاستنتاجات في تلك الجلسة كما اخبرني سمير ... وكان أغرب استنتاج أن المخابرات الامريكية قامت بخطفه ... ولكن لماذا ؟ لا احد يدري .. وقال البعض انه نزل الى كافتيريا المطار في الخرطوم ليشرب قدحا من القهوة فأصابته نوبة اغماء أو فقدان وقتي للذاكرة .. واخذ الحديث جانبا آخرا ..

قال سمير : هناك انباء مؤكدة تقول ان الحكومة تقبض على الاخوان المسلمين ... وصرت أفكر هل لهذا علاقة بخبر اختفاء يحيى حسين ؟

وجعلنا نضرب أخماسا في أسداس ، نحلل ونفسر ونستنتج بلا طائل ..

وأشرفت الساعة على الثالثة صباحا واستأذن صديقي في الانصراف وانصرف بعد أن شغلني بهذا الخبر المثير ، واستسلمت للنوم ..

استيقظت بعد قليل على ضجة قريبة في صالة المنزل التي وجدتها مضاءة ، ووجدت ابن خالتي رمزي الـــذي اسكــن معه يقف وعليه علامات الدهشة والاستغـــراب والقلق .. وتبينت طرقا شديدا على باب الشقة .. وهمس رمزي في أذني المباحث العامة ... ايه رأيك ... ولم يكن هناك رأي غير فتح الباب .. وطار النوم من عيني وانا أرى الضابط يندفع داخلا معه مجموعة من المخبرين قد شهروا مسدساتهم . واستفقت تماما .. المباحث العامة !! ماذا تريد ؟ هل لذلك علاقة بيحيى حسين المختفي وشعـــرت كأننـــي في حلم مزعج .. ودخل خلف هؤلاء عم هاشـــم البواب .. الرجل الصعيدي الذي كان مثلنا لا يفهم ما يدور حوله ، وسأل رمزي الضابط مين حضرتك ؟

ــ الرائد محمد عبد الغفار ترك .. المباحث العامة ..

ــ ممكن أن ارى بطاقتك ؟

ومن بين نظرات الغيظ والحنق التي كان يرمقنا بها المخبرون أخرج الرائد بطاقة مر بها أمام أعيننا ، ولكننا لم نقرأ فيها شيئا .. فقد اختلط سوادها ببياضها فـــي نظرنا ... وأمر الضابط أحد المخبرين بغلق الباب بعـــد صـــرف عم هاشم البواب الذي غادرنا ذاهلا .. وخيـــم السكون على النظرات القلقة من ناحية ، والمتحفزة مـــن ناحية أخرى .. وكانت الانفاس اللاهثة تسمع بوضوح .. وقطع السكون صوت الضابط يسأل : أيكم فلان (وذكـــر اسمي) ؟

ــ أنـــا

ــ وأين حجرتك ؟

واشرت اليها صامتا .. فقال وهو متجه اليها : ممكن نفتش ؟ ،

وحاول رمزي أن يمنعه ويطلب منه أمر من النيابة بالتفتيش .. وابتسم الضابط ابتسامة مريرة ساخرة ولم يرد .... واوقفت هذه المحاولة العقيمة ..

دخلنا حجرتي لتفتيشها وانبث المخبرون في أرجاء المنزل ... وجعلت اسأل الضابط : هل يمكن أن أعرف السبب لهذا كله ؟ عن اي شيء تبحثون ؟

وتردد في ذهني خاطر مجنون .. لعلهم يبحثون عن يحيى حسين .. ولكن لماذا يبحثون عنه ؟ وما علاقته بالمباحث العامة ؟ وهل لذلك كله علاقة بالقبض على الاخوان المسلمين ؟ ، وأفقت على اجابة الضابط .. وكان حقا مهذبا ..

ـ نحن نريد أن نلقي نظرة على الكتب والاوراق التي في حيازتك ..

وشعرت بالغضب يملأ جوانحي ... الكتب هي أكثر الاشياء قداسة في هذه الحياة وهي عندي في حرم آمن .. ولا يجب أن تعبث بها الأيدي .. وابتلعت غضبي فلم أكن أملك لحظتها سوى ذلك ... واستمر تقليب الكتب والعبث بها أكثر من ساعة.. وأخذوا وقتها مجموعة ثمينة من الكتب في مختلف المعارف والآداب وحملها بعضهم الى سيارتهم التي كانت تنتظر أسفل البناية وقد علمت بعد ذلك انهم عندما ذهبوا يقبضون على شقيقي الأصغر في

بلدتنا اخذوا ثمانية صناديق من كتبي التي كنت أحتفظ بها هناك ـ وانتهى التفتيش وانا أحاول تخمين ما يكون بعد ذلك .. وتكلم الضابط ..

ـ ممكن ترتدي ملابسك ؟

ـ ممكن .. ولكن .. لماذا ؟

واجاب الضابط بلهجة ودية :

ـ ابدا .. سؤال بسيط في المباحث العامة.. خمس دقائق ثم تعود ..

فقلت في تردد :

ـ في مثل هذا الوقت المتأخر ؟ فاجاب الضابط ، ولكن في حزم هذه المرة :

ـ نعم ... في مثل هذا الوقت المتأخر .

وادركت عقم المناقشة .. وارتديت ملابسي بهدوء وخرجت معه في استسلام تام .. ولا ادري لماذا ـ رغم ان الوقت كان حارا جدا ـ حرصت على اختيار ملابس صوفية ثقيلة ..

ومع تباشير الفجر الرمادية ، كانت السيارة تقطع شوارع القاهرة النائمة بسرعة فائقة ... وجلس الضابط بجوار السائق ، أما انا فجلست في المقعد الخلفي أفكر في مصيري بين مجموعة المخبرين ، وقد أمسك اثنان منهما بذراعي كأنهما رقيب وعتيد، وكان عقلي يمور بأسئلة كثيرة سرعان ما عرفت اجابتها قبل ان تطلع شمس ذلك النهار .. النهار الذي استقبلت فيه يوما من أكثر أيام حياتي عجبا وغرابة .....

وصلنا الى مبنى المباحث العامة وقد بدأ الصبح يتنفس تنفسا بطيئا ضجرا .. وكان المبنى غارقا في الصمت ، موحشا كأنه الموت ... هكذا بدا لي من الوهلة الأولى .

ونزلت من السيارة في صحبة المخبرين، وسرنا خلف الضابط ... كان يرتدي قميصا وبنطلونا ككثيره من الناس في القاهرة ... ولعلي قابلته يوما في طريقي بين مئات من الناس في الشارع عند غدوي ورواحي .. ولكن .. هل لو تحققته يوما كنت اتصور ان هذا الانسان الوديع بيده كل هذه المقدرات .. نعم انه يستطيع ان يأخذ اي انسان من بيته في اي ساعة يشاء الى حيث لا يعلم احد .. ويكفي أن يبرز بطاقة صغيرة في يده .. بطاقة لا يتمكن أحد من قراءتها .. وسرعان ما تنفتح امامه كل الابواب المغلقة كأنها خاتم سليمان ، او هي مصباح علاء الدين ... وطبيعي انه يستطيع ان يفعل أي شيء دون ان يبرز هذه البطاقة .

والحقيقة المرة أن الحال في مصر .. آنذاك .. كان يكفل لأي ممثل للسلطة ان يفعل ما يشاء دون حساب أو عقاب أو حتى مساءلة ..

ضابط بينه وبين احد الناس خصومة يستطيع هذا الضابط بسهولة وببساطة كاملة أن يذهب في صحبة بعض المخبرين الى منزل المسكين ويقتادونه الى حيث لا يعلم أحد .. وبعد هذا الاعتقال بشهور طويلة يمكن ان يكتب أمر الاعتقال .. وقد يسأل هذا المواطن .. وقد لا يسأل..

ومن اغرب ما كان يجري في تلك الايام الثقيلة أن المواطن عندما يمثل امام مكتب التحقيق ، كانوا يسألونه عن

سبب اعتقاله .. وكان عليه أن يقدم سببا وجيها معقولا يبرر هذا الاعتقال والا فالويل له ... هكذا كان الامر ..

واني اذكر فيما مرّ بي بعد ذلك ، عندما كنت في ضيافة المباحث الجنائية العسكرية بالسجن الحربي .. وكنت اجلس في انتظار التحقيق معي خارج أحد المكاتب.. واستدعي أحد المواطنين وسئل عن سبب اعتقاله من الضابط المكلف ، واجاب بأنه لا يعرف ، وقد عرف بعد ذلك انه كان لا يعرف فعلا ، ولكن الضابط أمر فرقة العذاب بصب جام غضبها عليه ، واستمر الضرب بالسياط والكي بالنار مدة نزيد على الثماني ساعات وبحاول ذلك الرجل أن يتبين الأمر عله يلهم باجابة تنقذه من هذه النار التي فتحت عليه فجأة ... ثم استدعيت للتحقيق في مكتب آخر ولم ادر ماذا كان من شأنه بعد ذلك ..

ثم اذكر قصة منكود آخر .. كان يقطن بجوار احد رجال السلطة في بناية واحدة .. وحدث خلاف بين زوجة هذا وزوجة ذاك .. وانتظر الضابط الفرصة حتى واتته في حملة اعتقالات عام (١٩٥٤) ... واعتقل الرجل .. والتقى به غريمه صدفة في فناء السجن الحربى وكتب اسمه فى المكان الخالي من ادعاء النيابة العسكرية وما هي الا لحظات حتى وجد صاحبنا نفسه في شاحنة مع آخرين ، حيث ذهبوا بهم الى مبنى محكمة الشعب .

وزاد حظه سوءا ان المحكمة قررت في هذا اليوم ان نوزع الاحكام على المتهمين دون محاكمة ، واصطف المتهمون صفين تحت وطأة الخوف والقهر ومر رقيب من الجيش وكتب أسماء كل صف في قائمة بيده ، وخرج احد المساعدين وأعلن في صوت جهورى ... بطريقة عشوائية.

ـ كل من سجل اسمه في هذا الصف قررت المحكمة سجنه عشر سنوات مع الاشغال الشاقة .. اما هذا الصف فكل واحد فيه قد عاقبته المحكمة باكثر من هـذا بخمس سنوات ، وما هي الا ليلة أو تكاد حتى وجد صاحبنا نفسه فـي الليمان يكسر الحجارة تحت حـرارة شمس (المقطم) الحاميـة .

ما علينا ... نعود الى مبنى المباحث العامة في صباح (٢٥) اغسطس ١٩٦٥ صعد الضابط ومن معه مـن المخبرين وانا بينهم الدرج خفافا ، وبدات خطواتي تثقل وبدأت أشعر بالقلق ، فقد شعرت أنني أتحرك نحو مصير لا اعلمه .. ولم يكن هناك انسان واحد في ردهة المبنى الواسعة .. أهـذه هي المباحث العامة التي يبعث اسمها الخوف فيأكثر القلوب شجاعة ؟ وصرت أصيح في الضابط :

ـ ألى اين تأخذني ؟ ما سبب كل هذا ؟

لم يرد علي ، وتحول الى انسان آخر غير ذلـك الذي عرفته ، كان يكلمني بلطف وعذوبة منذ قليل من الوقت .. وتركني بين حارسين ودلف الـى حجرة مـن الحجرات .. وبقيت مدة واقفا يلفني الصمت والقلق ، فقد تصورت أن هذا المبني لا بد وان يكون قد مليء بحـرس شديد وشهب خاطفة ، ولكن لم يكن هناك شيء من هذا أبدا .. الا أن هذا الصمت لا بد أن يخفي خلفه شيئا .. شيئا لا ادري مـا كنهه .. وكيف يكون أثره علي عندما يهب من كل ناحية ..

ونظرت الى أحد الحارسين ، وكان ينظر الي متفرسا وسألته .

ـ ولا ادري لماذا سألته هذا السؤال ـ :

ـ أهناك تعذيب ؟

ـ ايـن ؟

ـ في المكان الذي تذهبون بي اليه ..

ونظر الي الحارس نظرة وانية ثم قال :

ـ أهذه اول مرة تعتقل فيها ؟

استبان الامر .. هو اعتقال اذن ؟ ولكن لماذا ؟ وكان وقع كلمة اعتقال غريبا جدا على اذني .. ووجـدت نفسي أفكر بعمق في الامر .. هي ليست خمس دقائق كما قـال الضابط اذن ... واستفقت على صوت الحارس :

ـ على كل حال لا تقلق ...

ـ كيف ؟

ـ الضرب بسيط .. ، يا الهي !! كيف أخرج من هذه الورطة ؟ الضرب بسيط ؟.. وما الفرق بين الضرب البسيط والضرب المركب ؟ كنت ساعتها لا ارى فرقا بين الاثنين... ولكني علمت بعد ذلك أن الفرق بين الضرب البسيط وغير البسيط مثل الفرق بين السماء والأرض تماما دون أدنـى مبالغة ..وسأبين لكم كيف كان ذلك ...

ادخلوني الحجرة التي دلف اليها الضابط .. ودعاني الى الجلوس ، فجلست برهة يسيرة ثم طلبت ان يسمح لي باداء فريضة الصبح فوافق ، وعندما سألته عن جهة القبلة اعتذر بأنه لا يعرف مكانها .. وتذكرت انني أستطيع الصلاة الى اية ناحية ..

لا أريد ان اطيل عليكم ..

كتب محضرا بالمضبوطات التي ضبطت عندي من كتب وخطابات وبعض الدراسات التي كنت قد كتبتها عن التاريخ الاسلامي .. ثم ناولني القلم وطلب مني ان أوقع على المحضر ، وفوجئت انه لم يتضمن الكثير من الكتب التي اخذت من عندي .. ولكني لم أهتم ووقعت باسمي في هدوء وبلا ضجيج .. وفي دقائق قليلة كانت السيارة تضرب بنا مرة أخرى في شوارع القاهرة ، بعد ان أمر الضابط السائق ان يصعد بنا الى فوق .. هكذا قال له ..

وظهرت مآذن القلعة وصارت تقترب عبر الطرق المتعرجة ، وتقترب أكثر حتى بدت في ناظري كمارد شامخ الرأس في السماء .. ولا ادري لماذا أحسست ساعتها بروح عمرو بن العاص ترف قريبا مني .. ذلك الرجل العظيم الذي خلص مصر من ظلم الدولة الرومانية الشرقية .. وكان له الفضل في اعتناقي الاسلام .. وشعرت ساعتها أيضا ان روح الاسلام ستظل هي المهيمنة على القاهرة مهما مر بها من احداث وخطوب ..

وسارت السيارة في سراديب ملتوية متعرجة حتى وصلت الى مكان لم أعد ارى فيه المارة الذين كانوا يروحون ويجيئون منذ قليل .. اصبحت السراديب تعج بالجنود الذين يحملون بنادقهم وقد غرسوا فيها السلاح الابيض وارتدوا جميعا الخوذات كأنهم مقدمون على حرب ... وانتهينا الى باب ، ونزلنا جميعا ، ولاحظت ان معاملة من معي قد صارت أكثر خشونة ... ودخلنا مكانا أشبه بمدخل قبر عتيق في قصر قديم ... لقد كنا على باب معتقل القلعة السياسي ، ذلك المكان الذي شهدت فيه مذبحة أكثر وحشية من تلك التي فعلها محمد علي في زمن غبر ... واذكر انني حملت على كتفي أحد قتلى تلك المذبحة في يوم لاحق لوصولي كما سيأتي فيما بعد .

الفصل الثاني

حقوقك أيها المواطن اذا اعتقلت

طرق الرائد محمد عبد الغفار ترك الباب الذي يقع في مدخل القبو، وفتح لنا شخص يرتدي ملابس مدنية متجهم النظرة تبدو عليه امارات الغباء والغلظة وادى التحية للضابط وسمح لنا بالدخول .

كان هذا المدخل عبارة عن حجرة ضيقة اشبه ما تكون بالزنزانة وفي مواجهة الباب الذي دخلنا منه باب آخر ضيق مغلق ، وتذكرت ساعتها حكمة تقول : (لا تدخلوا من الباب الضيق) ولكن أنى لي بطاعة هذه الحكم والأمثال في هذا الوقت الضيق ؟ كان هناك مكتب صغير دهن بطلاء بني اللون وفي خشبه بدت أسماء كثيرة لم أتبينها قد حفرت فيه بسن بارز . . ، وعليه دفتران او ثلاثة شبيهة بدفاتر الاحوال الموجودة عادة في أقسام الشرطة ... وبجوار المكتب توجد خزانة حديدية خضراء الطلاء ولها مقبض نحاسي لامع . . تصورت ساعتها أنهم قد يفتحونها ويودعونني فيها الى يوم

الذين ... ويا ليتهم فعلوا ذلك .. وخلف المكتب كان سرير صغير ، قد تمدد عليه عملاق يغط غطيطا عاليا قـــد برزت ساقاه من نهاية السرير في الفضاء ولم توقظه الضجة التـي أحدثها دخولنا .. وكان يبدو وكأنه قطعة من الحجرة الصماء الباردة الملامح .. وكان يجلس خلف المكتب ضابط آخر علق سترته على مقعد قريب وتشير النجوم الثلاث المتصقة فوق كتف سترته بأنه نقيب وصار يرحب بالضابط الذي اصطحبني الى هناك واخذا يتحدثان وكأنه لا وجود لي على الاطلاق .

وسرعان ما انصرف الرائد محمد عبد الغفار ومن معه وصرت وجها لوجه مع ذلك الضابط الجديد ... وما هي الا لحظـة حتـى دارت الاسئـلة .. سريعة متلاحقـة ... اسمك ؟.. سنك ؟.. صناعتك ؟.. عنوانك ؟.. هل معك أمانات ؟.. اخلع الحزام كذلك النظارة الطبية. واعترضت. النظارة بالنسبة لي ضرورية .. أو هكذا خيل الي لحظتها..

وارتفع صوت كالصفير من فم العملاق الذي كان نائما منــذ قليل :

ـ من مصلحتك ان تسلم هذه النظارة ..

ـ ماذا تعني بهـذا ؟

ـ انت لا تدري ماذا ينتظرك خلف هذا الباب ..

ولفني وجوم ثقيل .. وسلمته النظـارة ويـــداي ترتعشان .. ماذا ينتظرني ؟ ولماذا ؟

وتذكرت محمد علي والمماليك .. محمد علي بلحيته الفضية ونظرته القاسية الساخرة ، وامين بك شاهين وهو

يقفز بجواره من فوق اسوار القلعة ودوي الرصاص يصم اذنيه ، وسرعان ما وجدت نفسي أدلف من الباب الضيق بعد ان جردوني من كل ما معي وفي لحظة دخولي رايت مشهدا لا أستطيع أن إنساه ، وظني انه لن يخرج من مخيلتي حتى آخر يوم من حياتي ..

عندما دخلت من الباب واغلقوه خلفي تحسست قدماي درجتين حجريتين نزلتهما مترددا ثم ارسلت بصري الى المكان المكشوف الذي بدات الشمس في غزوه كان ثمة على الجانبين حجرات صغيرة مفتحة الابواب في أعلى كل واحدة رقم .. وكان هناك طابور عجيب من البشر عرفت فيما بعد انهم كانوا في طريقهم الى دورة المياه بعد ليلة حافلة من ليالي العذاب بمعتقل القلعة ...

كانوا بين الثلاثين والاربعين ، وكانوا جميعهم يئنون من الألم وبدوا جميعهم مشوهين من التعذيب القاسي الذي انزل بهم فتجد اثنين يحملان واحدا منتفخ القدمين بالصديد الاصفر اللامع الذي يبدو تحت الجلد الذي تمزق في مواضع كثيرة ... ولا تستطيع أن تتبين معالم وجهه من الانتفاخات التي تحيط به ومن الالوان المختلفة التي أحدثتها الكدمات وكأنه قد ارتدى قناعا بشعا قميئا ليخيف به الناس ... وترى آخر قد شج راسه شجا منكرا فبدا لون الدم الاحمر بين سواد الشعر القاتم وكأن راسه قد فلقت بسيف ... ثم ترى آخر يزحف على بطنه لانه لا يستطيع المشي من شدة ما لاقى على قدميه ، وعلى غير قدميه ... وليس هناك من يحمله فالكل مشغول بحمل من لا يستطيع الزحف ـ هذا هو الضرب البسيط الذي قال عنه الحارس انه كل ما ينتظرني في رحلتي المجهولة الى ذلك العالم العجيب .

ووقفت صامتا ازدرد ما أرى وقد جف ريقي من الدهشة وليس من الخوف فاني أتذكر جيدا أن الخوف قد زايلني تماما في تلك اللحظة ، وحتى الآن لا استطيع أن أعلل كيف كان ذلك .

وفجأة رأيت امامي شابا أسمر اللون في الخامسة والثلاثين من عمره تقريبا له شارب دقيق رفيع كأنه سوط سوداني جديد لم يضرب به أحد بعد .. ولا ادري من أين جاء فقد كنت مشغولا بمراقبة الطابور الذاهب الى دورة المياه ..

وتقدم مني هذا الرجل حتى وقف قبالتي وصار يحدق في وجهي للحظات كأنما يريد أن يستشف ما وراء وجهي.. وصرت أحدق انا الآخر ثم سألني :

ـ هل انت فلان ؟

ـ نعم ...

وفي حركة سريعة خاطفة صفعني صفعة هائلة على وجهي طار على اثرها شرر من عيني وانهالت الشتائم من فمه كأنها سيل منهمر وكان يردد أبذأ ما كان في قاموس الشتائم ! ان جاز التعبير ...

ووجدت نفسي بطريقة لا شعورية وقد أمسكته بتلابيبه ودفعته الى الجدار في حركة عصبية دون تفكير أو تقدير وصرت أصرخ في وجهه ..

ـ كيف تضربني بهذه الطريقة ؟.. أنت مجنون بالتأكيد .. هناك دستور وقانون ومجلس أمة .. والويل لك ان نسيت شيئا من هذا ..

لم أكن اتصور يومها ان شيئا من هذا يمكن أن يحدث لي في بلدي ... والشيء الغريب أن أحدا من المعتقلين لم يلتفت الي ، كأن الامر لا يعنيهم ... كل مشغول بما هو فيه .!

واسرع نحوي عدد من المخبرين ... واستفقت ... وتبينت لي حقيقة هائلة ... لقد صرت في مكان لا استطيع فيه شيئا ولا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا على الاطلاق ولم يكن هناك غير التسليم لارادة الله تفعل بي ما تشاء ...

وهموا أن يبطشوا بي فمنعهم الضابط الذي صفعني وكان اسمه أحمد راسخ ـ كما علمت فيما بعد ـ وبعد أن تأكد من هدوئي أخذني من يدي عبر طريق طويلة بين الزنازين القائمة كالاشباح الميتة في مطلع ذلك الصباح الكئيب ...

وفي نهاية الممر وجدت سلما خشبيا يفضي الى الطابق الثاني، وصعدت السلم خلف الضابط صامتا متجمد المشاعر ميت الانفعال والحس من هول ذلك الحدث الهائل الذي صدمت به في ذلك اليوم ...

وفى نهاية السلم وجدت صالة صغيرة تفصل بين عنبرين كبيرين كان الواحد منها حوالي خمسة وعشرين مترا طولا وعشرة في العرض، والقيت نظرة الى اليسار ، فوجدت العنبر خاليا من الأثاث عدا دكة خشبية وكرسيين أو ثلاثة، ومكتب صغير شبيه بذلك الموجود في فصول المدرسة ، ولم يكن هناك أحد ولكن كان جداره مخضبا بدماء قديمة ، ومن النافذة التي غطاها الحديد عرفت أن سمك الحائط أكثر من متر على وجه التأكيد ...

وفي هذه اللحظة شممت رائحة الموت .. ثم التفت ناحية اليمين ... كان هذا، وأحمد راسخ يراقبني صامتا ، على شفتيه ابتسامة صفراء ... وعندما رآني أحول بصري ناحية العنبر الواقع في هذه الناحية أشار بيده اشارة ما الى من في العنبر ... واذا بي أسمع ضجة كبيرة واصواتا مليئة بالفزع والألم ... نعم صيحات بشر يجرون من وحش مفترس يطاردهم وبدأت أشعر بالخوف ..

ما هذا كله ؟ اناس يجرون في حركة دائرية على طول العنبر وقد تجردوا من ملابسهم وظهروا كيوم ولدتهم امهاتهم ، وقد وضعت القيود الحديدية في أيديهم ووقف في كل ركن من اركان العنبر ثلاثة مخبرين امسك كل واحد بهراوة تزيد عن طول الرجل وكانوا يهوون بهذه الهراوات على اولئك المنكودين ...

والتفت الي أحمد راسخ مشدوها مذهولا من هول ما رأيت ، ولكنه قال اي من خلال ابتسامة صفراء :

ـ هل تعرف أحدا من هؤلاء ؟

ـ كلا ..

ـ دقق النظر جيدا ..

وارسلت نظري من جديد وكدت اسقط على الارض من المفاجأة .. لقد كان هؤلاء المنكودون ثلاثة من أصدقائي ولم اتبينهم للوهلة الاولى فقد كانوا عراة تماما ..

وفي هذه اللحظة جاءني صوت أحمد راسخ كالفحيح :

ـ هل رأيت الدستور ومجلس الامة ، وكيف ان هذه

الاشياء لا معنى لها ابدا ؟ وابتلعت ريقي ولم اجـــد جوابا ففد كان الامر اعظم من ان يقال فيه شيء ، وعاد الي الكلام ثانية وكان صوته هذه المرة مجسما يأتي من كل ناحية ..

ـ هيه ناوي تتكلم ؟ ووجدتني أرد عليه بلا وعي :

ـ اتكلم عن اي شيء .

ـ يبدو انك متعب ..

ـ مطلقا ... واسألني وانا أجيبك ... لا أظن ان هناك ما أخفيه ...

ـ سوف نرى أيها التعس ..

ولم اكن أدري ساعتها حقيقة هذا الامر .. ما القصة؟ عن اي شيء سأتكلم ؟.. ولكني شعرت أنني ان لم أتكلـم فسوف يقتلونني من الضرب ولم أكن قد ذقت الضرب بعد ، حتى هذه اللحظة اللهم الا تلك الصفعة المجنونة التي اخذتها عند دخولي .. وقد علمت فيما بعد أن هذه الصفعة كانت اهون ما يمكن أن يناله الانسان في تلك الايام ...

وقادني أحمد راسخ الى العنبر ناحية الشمال وجلس على الدكة الخشبية وقال :

ـ هيا تكلم ..

ومرة ثانية ازدردت ريقي وانا فـي حالة بالغة مـن السوء .. وصرت أحدق في وجهه دون أن أتكلم او انطق بكلمة واحدة .. فلم اكن أعرف في اي موضوع أتكلم ..

وسألته في صوت خافت :

ـ هل يمكن أن تسألني وسوف أقوم باجابتك على كل سؤال ؟

وضحك ضحكة وحشية خشنة ثم صرخ بعدها يستدعي الزبانية ... وسرعان ما كان بيننا اربعة منهم يتطاير الشرر من أعينهم وفي أيديهم الهراوات التي وصفتها .. وكانوا كأنهم يفهمون ما يراد منهم ...

وفي اقل من نصف دقيقة كنت مجردا من ملابسي وادور في ساقية العذاب ... والهراوات تأتيني من كل مكان ... وكأن سقف الحجرة صار يمطر عصيا واسواطا من نار ... والضرب يوجعني ويسبب لي الما لا أستطيع وصفه واشعر كأن أشياء من جسدي ونفسي تتمزق وتتحول الى هباء يضيع بين دخان العذاب الثقيل الذي يشمل العنبر ...

ويبدو ان الضرب قد استمر ساعة كاملة او يزيد ولو انني ظننت انه استمر دهرا طويلا ... وسقطت على الارض اعياء وتعبا ... وتمددت دون حراك .. ولم يتركني المخبرون ولكنهم التفوا حولي يضربون بعصيهم وهراواتهم ... تماما مثل الذبيحة التي ينفخونها ثم يضربونها بالعصي ليتسنى لهم سلخها بعد ذلك دون مشقة ..

وكان السلخ في حالتنا تلك هو التحقيق ... وما هي الا لحظات او تكاد حتى ظهر احمد بك ومن بين قدميه المفتوحتين كنت أرى ادوات العذاب وهي تجر على الارض فترسل صوتا يبعث القشعريرة في أكثر القلوب شجاعة .. وفي تشف ووحشية سألني :

ـ هيه ناوي تتكلم ؟

ولم ينتظر ان ارد عليه بل اردف قائلا :

ـ لقد اذن لنا سيادة المشير بقتل خمسين كلبا منكم .

وتخلل الضباب عقلي ، ولكني شعرت بخـــدر لذيذ يسري في جسدي .. لقد اقترب الفرج وما هي الا هنيهـة حتى يأمر هذا المخلوق بقتلي واطأه بعدها بقدمي في ملكوت الله الفسيح ...

وانتابتني لمحات من التفكير اتراني لو مت هل اذهب شهيدا ؟ وانتهيت من افكاري الملائكية على عذاب الارض يصب صبا .. وعاد الضرب من جـديد .. ولكنه اكثـر وحشية وضراوة هذه المرة .. ومن بين الضرب المبرح صرت اقول لـه :

ـ الا تبين لي عن اي شيء تريدني ان اتكلم ؟

وقال الكلمة التي انارت لي الطريق ... وسرعان مـا لفني الظلام من جديد ... لقد نطق بكلمة واحدة ... كلمة حادة كأنها السيف ..

ـ الاخـوان ؟؟؟

وفي دهشة قلت له :

ـ ماذا عن الاخوان ؟

ـ التنظيمات .. المؤامرة .. الاسلحة .. المدربون .. تكلم عن كل شيء ، وعاد الضرب مـن جديد قويا اخـــاذا عبقريا ...

لم ادر كم مر بي من الوقت ... فقد اخذتني غاشية افقت منها وكأنني في حلم .. كان النهار قد انتصف ... وغادر احمد بك العنبر وجاء ضباط آخرون .. واحضر الجند مكاتب شبيهة بتلك التي كانت في فصول المدارس.. وانتحى كل ضابط ركنا من أركان العنبر وسيق أمثالي الى كل واحد من الضباط الجالسين .. اما انا فقد أهملوني الى حين .

ومن خلال التحقيق فهمت القصة في ذلك النهار العصيب ..

الضباط يؤكدون للمتهمين ان هناك مؤامرة دبرتها جماعة الاخوان المسلمين ... والمتهمون في حالة ذهول حقيقي فرغم أن جميعهم تقريبا من اعضاء الجماعة الا أنهم لم يكونوا على علم بما يؤكده الضباط من أن هذه المؤامرة قد دبرت ضد الحكومة التي يرأسها جمال عبد الناصر ، وانه قد ضبطتها المباحث الجنائية العسكرية تحت اشراف شمس بدران ... والمباحث العامة لا تدري شيئا عنها ... والقضية الاساسية تحت تصرف المباحث الجنائية العسكرية بالسجن الحربي حيث كانوا يجرون التحقيق الرئيسي .. وهناك لا يسمحون بتسرب شيء من المعلومات الى المباحث العامة التي كانت تقبض على كل من هب ودب حتى تستطيع ان تكون فكرة واضحة عن الموضوع على الاقل .

وكانت المباحث الجنائية العسكرية هي أعلى سلطة في مصر آنذاك فقرارها قضاء وقانون بل كان هناك استئناف لحكم القضاء ونقض في أحكامه أما هذه فلا .. وكان يرأسها العميد سعد زغلول عبد الكريم الذي يتبع مباشرة لرئاسة شمس بدران الرهيب ..

وشمس بدران هذا هو مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر الذي كان مثقلا بأعباء كثيرة جعلته يوكل عنه مدير مكتبه في عمل كل ما يراه في صالح مصر ولم يكن يراجعه او يسأله بل اطلق يده يفعل بالعباد ما يشاء ..

•

ويدخل الانسان الى مكان التحقيق ويضرب حتى يفقد الوعي .. ولا يتكلم لانه لا يعرف شيئا ... ثم يؤتى بآخر .. وهكذا ..

•

وكانوا يضربون الناس ضربا شديدا حتى يعترفوا انهم جناة ... لا يكتفي المحقق منه بالاعتراف بل عليه أن يقنع المحقق بجرمه .. وعليه ايضا ان يسد الثغرات التي قد تتخلل كذبه على نفسه ..

•

ومن الحكايات التي سمعتها ورايتها تروى أمامي في ذلك اليوم الدامي ... قصة (جوال الارز) :

•

مصلح زريق عامل يعمل في شركة تقوم على رصف الطرق في انحاء البلاد .. وفي غضون عام (١٩٦٠) كانت شركته تعمل على رصف طريق بجوار مدينة دمياط حيث تشتهر هذه المنطقة بالارز الجيد ... وبعد ان انتهى من العمل وآن أوان عودته الى القاهرة اقترح على زميله أحمد السيد اسماعيل ان يمروا على بلدة قريبة اسمها (كفر البطيخ) حيث يوجد بها تاجر ارز وليس باية صفة اخرى ... فقد كان عبد الفتاح اسماعيل من زعماء الجيل الثالث لجماعة الاخوان المسلمين ... وهي حقيقة غابت عن مصلح المسكين ..

قصد مصلح واحمد السيد اسماعيل قرية كفر البطيخ ليحصلا على جوال من أرز دمياط الفاخر .. ولو كانا يعلمان ما سيكون من جراء هذا لحرّما أكل الارز عليهما وعلى ذريتهما من بعدهما الى الأبـد ..

نزلا القرية وسألا عن عبد الفتاح اسماعيل .. ويشاء حظهما او قدرهما أن يلتقيا بمخبر المباحث العامة الموجود في الناحية ... وما كادا يسألانه حتـى استنطقهما وسجـل اسماءهما في دفتره من واقع بطاقة كـل منهما ... ثـم نصحهما بالذهاب بعد ان عرف طلبهما وأوصاهما الا يعودا الي القرية ابدا ... وحرر المخبر تقريرا بالحادث رفعه الى المباحث العامة .. ولم يلتفت الـى التقرير نظـرا لتفاهـة الوقائع .. ولكنه حفظ في النهاية في ملف عبـــد الفتاح اسماعيل .. ورجع مصلح وأحمد السيد اسماعيل ونسيـا الموضوع تماما ..

ومرت السنون وجاء عام (١٩٦٥) وقبض على عبـد الفتاح اسماعيل وأودع السجن الحربي رهـن التحقيق ... هناك عند المباحث الجنائية العسكرية وعكفت المباحث العامة – التي لم تكن تدري شيئا عن الأمر – على دراسة المسألة واستخرجت كل الاسماء التى ورد ذكرها ضمـن التقارير بملف عبد الفتاح اسماعيل .. والقت القبض على أصحابها. وجرى معهم التحقيق .

وجاء اليوم الذي لم يخطر ببال مصلح وصاحبه ابدا..

وحاولوا أن يعرفوا من مصلح سر السؤال عـن عبد الفتاح اسماعيل منذ سنوات ... وكانت الاجـابة سهلة وبسيطة ... لقد ذهبا من أجل أرز (دمياط) الذي اشتهر بالبقاع .. ولم تزده هذه الاجابة الا عذابا ...

وصار العذاب يصب فوق راسه حمما حمما ... تارة بالهراوات واخرى بالكرابيج النوبي منها والسوداني ... والرجل يصرخ بكلمات مفهومة واخرى غريبة لم ترد في لغة مما يعرفها البشر .. ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ...

وعندما يكل الزبانية من التعذيب يرفع مصلح صوته بصراخ مفهوم ...

ـ والله العظيم كنا بنسأل عن عبد الفتاح من أجل الارز .. جوال الأرز يا سعادة البك .. ويرد عليه الضابط :

ـ جوال أرز ولا جوال سلاح يا ابن الكلب ؟

ووجد مصلح فرصته لينجو من العذاب ... فصرخ بكل قوته وكأنما قد أصابه مس من الجنون :

ـ ماذا قلت ؟ جوال سلاح ؟ نعم . نعم . هذا ما كنا نرمي اليه برحلتنا الى كفر البطيخ ... كان لا بد للحقيقة ان تظهر ... لقد ذهبنا من أجل جوال سلاح .. نعم .. لقد ذهبنا من أجل السلاح ...

وصار يضحك في جنون ... وتوقف العذاب وتحول مجرى التحقيق واخذ منحى آخر .. مضحكا ومبكيا في نفس الوقت ...

كانت المأساة ملتصقة بالملهاة حتى لا تكاد تبين هذه من تلك .. وفك قيد مصلح الحديدي ورفع عنه العذاب، واعترف بأنه نقل جوالا من السلاح خرج به صاحبه من قرية كفر البطيخ ...

وانبرى أحمد السيد اسماعيل يؤكد رواية مصلح في حماسة وجنون ... كان هذا او الموت لكليهما ...

وانقلبت وزارة الداخلية وتحركت المباحث العامة .. حضر الى معتقل القلعة سيادة العميد أحمد صالح داوود وكان ركنا من أركان جهاز المباحث العامة .. لقد جاء بنفسه ليشرف على التحقيق .. وكان لا بد لمصلح أن يظهر السلاح الذي اعترف بنقله من كفر البطيخ كذبا .. وفكـــر الرجل بسرعة ... القضية خاصة بالاخوان المسلمين .. وهـــذه الاسلحة ينبغي ان تكون في حوزتهم ... ولم يجد في ذهنه سوى اثنين من الاخوان يقيمون في ناحيته .. وكانا قـــد خرجا من السجن مؤخرا في عام (١٩٦٤) ... وهما احمد شعلان وزكريا المشتولي ثم عززناهما بثالث بدر القصبي.. عليهم رحمة الله جميعا ..

وادعى مصلح أن الا سلحة قـــد أعطيت للثلاثة او لبعضهم ـ لا اذكر بالضبط ـ وجيء بالثلاثة مـــن معتقـــل الفيوم حيث كانوا يقيمون ... ودارت ساقية العذاب عنيفة وأخاذة وعبقرية كما وصفت مرة ... وقتـــل الثلاثة ...

وقد مات أحدهم وانا احمله وهو زكريا المشتولي رحمه الله ... فقد كانوا لا يعرفون شيئا عن هـــذه القصة وضربوا جميعا حتى الموت ..

وفي العادة يكتبون امام اسم الذي يموت من التعذيب كلمة ... هارب ... ثم يهاجمون منزله ويمزقون الامتعـــة ويخربون الدار ويضربون كل من فيها وقد يأخـــذون بعض الذكور والاناث الى المعتقل بحجة انهم ساعدوا على هرب ذلك الذي ذهب الى ربه مستريحا من وعثاء الحياة ...

اما مصلح زريق فقد أرسل وصاحبه الى السجن الحربي وافرجت عنهما المباحث الجنائية العسكرية صاحبة الحول والطول بعد وصولهما بأيام قليلة ...

ولا أنسى تلك اللحظة التي اقتربت فيها من مصلح عندما ذهب الضابط لتناول الغداء وقلت له :

ـ الكلام الذي تفوهت به منذ قليل (وكان ذلك عقب اعترافه) واضح انه غير صحيح ولكنه ممكن أن يؤدي بك الى الليمان ...

فنظر الي بشرود وقال :

ـ ماذا تعني ؟

فقلت له متعجبا ...

ـ كلامك هذا يعني خمسة وعشرين عاما في الاشغال الشاقة ..

فنظر الي نظرة جادة مليئة بالخوف وقال :

ـ يعني ... ماذا تريد مني بالضبط ؟

فقلت له :

ـ ما دام هذا الكلام لم يحدث فلا بد ان ترجع عنه ..

وتحولت نظرة الخوف في وجهه الى نظرة احتقار وازدراء ثم قال لي :

ـ يبدو انك أبله ...

ـ انا ؟

ـ نعم .. والله لو كان نتيجة اعترافي أن أسجن مائتين وخمسين سنة ما غيرت حرفا واحدا منه ...

فقلت لـه :

ـ طيب هل تسمح لي فأفهم الضابط حقيقة القصة ؟

فبكى بكاء مرا وتوسل الي أن لا أفعل ... وما كنت لأفعل فقد شغلتني أحداث وأحداث ..

وقطع الحديث فقد عاد الضباط بعد أن امتلأت بطونهم بالطعام والشراب وردت اليهم الحيوية التي أضاعها التعذيب ...

ومن الاشياء التي تستحق الذكر ما حدث في تلك الايام ان احمد صالح داوود قد جاء للاجتماع بالضباط للكلام معهم في الشؤون الخاصة بالتحقيق ومجراه .. وبعد ان تم الاجتماع ... وكان يقف مع بعضهم في فناء المعتقل على بعد أمتار قليلة من المكان الذي كنت أعذب فيه وسمعته يقول :

ـ يا جماعة ... ضعوا نصب اعينكم أن هناك تنظيما يضم كل أفراد جماعة الاخوان .

ـ ولكن يا سعادة البك كل النتائج التي حصلنا عليها لا تفيد ذلك ..

وفي حدة قال سعادة البك أحمد صالح :

ـ الرئيس قال ان فيه تنظيم .. يبقى فيه تنظيم .. فاهمون ؟

يجب ان يسير التحقيق على هذا النحو ... أين لهمة ؟.. اناأرى بعض المعتقلين يمشون على أرجلهم ...

وعادت طاحونة العذاب الميتة والتي كانت قد توقفت للاجتماع ودارت دورة اكثر شراسة وقسوة حتى لا يقدر احد على المشي .. كانوا يريدون قتل الجميع .. كأن الزمن قد توقف في تلك الايام البغيضة ..

وتركت في عنبر التحقيق ثلاثة أيام .. اعذب حينا .. وينسونني حينا آخر .. وانا أجلس أثناء نسيانهم لي على البلاط عاريا من الملابس ...

وكان يؤتى بالرجل السمين العظيم فلا يزن عندهم جناح بعوضة ... فيجردونه من الملابس وينزلون عليه ضربا بالشوم (الهراوات) ... ضربا موجعا قاتلا .. ينزل في جسده حيث شاء له ان ينزل ... وما يزالون به حتى يغمى عليه .. ويفقد قواه وكل ما في نفسه من طاقة ... ثم يقف بعد ذلك عاريا مشوها من الضرب أمام الضابط ليتلقى سيلا من الاسئلة والاستفسارات بين ركل وصفع المخبرين وسبهم وشتمهم ... ولم يكن المحققون يهمهم في قليل او كثير ما في كلام المتهم - الذي لا يعرف تهمته - من حقائق بقدر ما كان يهمهم ان يعترف انه كان مشتركا في مؤامرة لقلب نظام الحكم وحال ضبطه دون التنفيذ ...

وكان وجه المحقق يتهلل بالبشر والحبور حينما يبدأ المتهم بالهلوسة .. وتبدو علامات الانتصار على وجه الضابط حينما يبدأ المتهم في قص الاكاذيب حول نفسه ونشاطه المزعوم حتى ينجو من العذاب .

قال لي أحد الضباط آنذاك :

ـ الشعب كله متهم ومتآمر حتى تثبت براءته ...

وكانت هذه الحيلة تفلح الى حين .. فما يبدأ الانسان في الكذب واختراع المؤامرات الوهمية حتى يرفع عنه سوط العذاب .. ولكن سرعان ما يكتشفون أنه يكذب فيعود الضرب أكثر ضراوة ووحشية ...

هكذا كانت الامور تسير في معتقل القلعة الرهيب في الأيام الأخيرة من شهر أغسطس من عام (١٩٦٥) .

الفصل الثالث

أيام الاعتقال الأولى

استطعت أن افهم اخيرا سبب اعتقالي ...

كانوا يريدون القبض على (يحيى حسين) .. ذاك الذي ورد ذكره في الفصل الاول ... وهرب يحيى عندما احس بذلك وكان لا بد من القبض على أصدقائه وزملائه في الدراسة والعمل .. وما هي الا ساعات قلائل حتى تم ذلك .. قبض على كل من كانت لهم علاقة مع يحيى .. دفعته في الكلية .. دفعته في معهد الطيران .. أصدقاؤه الذين لم يكونوا في كلية الزراعة ولم يكونوا في معهد الطيران .

وكنت من الصنف الاخير ..

ومن بين هذا العدد الذي يقارب المائة شخص كان يجري التحقيق لمعرفة الذين كانوا على علاقة تنظيمية معه..

وكان الامر لا يخلو من صور طريفة ..

عبد الرؤوف عبد الناصر ... من أولاد الذوات كان ابوه عضو مجلس شيوخ سابق .. قضى الفترة بين (١٩٥٢) ـ (١٩٥٩) في سويسرا يدرس الصيدلة . وبعد أن حصل على شهادة البكالوريوس في الكيمياء والصيدلة حضر الى مصر .. والتحق بمعهد الطيران .. وصار طيارا وافتتح (صيدلية) في شارع القصر العيني .. وصار وقته موزعا بين الصيدلية وبين السفر الى الخارج قائدا لاحدى الطائرات ... وأسرع اليه المال بفترف منه اغترافا . تارة من الصيدلية وتارة من التجارة الخفيفة التي يقوم بها عبر رحلاته الى خارج البلاد ..

ولم تكن له علاقة بالدين ... وكذلك كان حاله مع السياسة .. فلم يكن يفهم فيها حرفا واحدا ... ولم يكن يهمه أن يسيطر هذا أو ذاك .. ولا يهمه من يحكم . وكان يعيش حياة هانئة مليئة بالمتع واللذات واللطائف .

ولم يكن يعيبه شيء في نظر الواقع الماثل سوى انه كان ضمن افراد دفعة يحيى حسين من معهد الطيران ...

وجاء الى التحقيق وقبض عليه عقب قدومه من لندن .. وفي المطار أخبروه أنهم يريدونه لمدة خمس دقائق وقد كان ...

وأخذ بحقيبته الى المعتقل ... وضرب حتى أوشك على الموت ..

ومن طريف ما يرويه لي بعد ذلك انه اثناء الضرب ورأسه الى أسفل ورجلاه الى أعلى شاهد عددا من زملائه الطيارين ..

محمد الغنام .. خالد سيف .·. ضيـاء الطوبجي فظن أن الحكومة تريد تأديب العاملين بشركة مصر للطيران لفسادهم وسوء أخلاقهم ...

ومن الطريف ايضا أنهم حينما قاموا بتفتيش حقيبته وجدوا فيها زجاجتين من الويسكي الفاخر وكان فـي ذلك الدليل الناصع على براءته من تهمة الاسلام .. ولكـن لا فائدة ...

خالد سيف زميل يحيى حسين بكلية الزراعة ثم فـي شركة الطيران .. لم يحتمل وطأة التحقيق فاعترف أنـه عضو في جماعة الاخوان التي لم يسمع عنها الا لماما .. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل اعترف عندما سألوه عن الاسرة (١) التي فيها أجاب بأن هناك اسرا خارجية وأخرى داخلية وأنه كان في الاسر الخارجية، لأنه يسافر الى الخارج كثيرا ...

وعندما سئل عن الاشتراكات المالية أسقط فـي يده وظن أنه سيكشف .. وسيعلمون انـه يكذب ... ولكـن سرعان ما تصرف .. وقال انه كان امام مسجد عمر مكـرم بميدان التحرير يوما ما فأتاه شخص لا يعرف اسمه وسأله:

ـ هل انت اخ ؟

فأجاب خالد :

نعـم !!

---

(١) الاسرة : مجموعة تنظيمية .

وعند ذلك طلب منه الرجل المزعوم ثلاثين قرشا .. وفي مرة أخرى طلب منه خمسين قرشا ،

هكذا كانت قصة خالد سيف في التحقيق .. ساذجة ومضحكة ..

وخرج من أصدقاء يحيى حسين وأفرج عنهم بعض من ابتسم لهم الحظ بعد حوالي ستة شهور .. وخرج البعض الآخر بعد عام .. وعامين .. ومنهم من ظل في المعتقل حتى لحظة كتابة هذا الكلام .... (٢)

أما بالنسبة ليحيى حسين فقد ورد في أمر الاحالة الى محكمة أمن الدولة العليا ... الجناية رقم ١٢ لسنة ١٩٦٥ أمن دولة عليا ما يلي :

بالنسبة للمتهم العاشر يحيى حسين :

١ — قرر المتهم السابع محمد ضياء الدين عباس الطوبجي بالتحقيقات ان المتهم كان عضوا معه في التنظيم السري الجديد لجماعة الاخوان المسلمين في أسرة كانت تجتمع دوريا في منزله .. كما كان يدفع (٥ ٪) من دخله اشتراكا شهريا .. وقد تلقى تدريبات على المصارعة اليابانية وعلى الاسلحة النارية بمنزله كما تسلم خنجرا وأضاف إنه تسلم من علي عشماوي وزينب الغزالي بعض الخطابات التنظيمية لارسالها أثناء وجوده بالخارج الى اشخاص معينين من جماعة الاخوان المسلمين المقيمين بجدة والخرطوم .

(٢) مساء الاربعاء ٥ نوفمبر سنة ١٩٦٩ معتقل طره السياسي .

كما كلفه علي عشماوي عام (١٩٦٥) بشراء كاتم صوت من الخارج اذا تيسر له ذلك ... واستطرد الى أن المتهم اشترك معه في خلال شهر يونيو سنة (١٩٦٥) في معاينة محطة توليد الكهرباء بمطار القاهرة الدولي تمهيدا لنسفها وتدميرها وكان هو الذي سيقوم بوضع قنابل زمنية بتلك المحطات ... وقد رافق أحد المهندسين من أعضاء التنظيم واجريا معاينة ثانية ، وعاينا مولدات الكهرباء والاتصالات التلفونية وبرج المراقبة وجهاز توجيه الطائرات .. واضاف ايضا ان علي عشماوي كلف المتهم المذكور خلال شهر يوليو عام (١٩٦٥) بالذهاب الى محطة سكة الحديد بالقاهرة لمراقبة ركب السيد رئيس الجمهورية عند سفره وتقديم تقرير بنتيجة مراقبته وقد طلب منه في شهر اغسطس عام (١٩٦٥) الاتصال بفاروق المنشاوي لتلقي التعليمات منه حال القبض عليه وقد حاول الاتصال بالاخير بعد القبض على الاول ولما لم يتيسر له ذلك اخبره انه سيهرب الى الخرطوم ولم يلتق به بعد ذلك ...

٢ - قرر المتهم الثاني عشر فاروق عباس سيد احمد أن المتهم اخبره عام (١٩٦٥) انه عضو في تنظيم سري لجماعة الاخوان المسلمين يهدف الى تغيير الحكم القائم بالقوة ويتلقى تدريبات على المصارعة اليابانية وعلى السير على الاقدام لمسافات طويلة تنفيذا لاوامر التنظيم ، وعرض عليه الانضمام اليه .. وطلب منه في ١٩٦٥/٨/٢٢ الاتصال تلفونيا بفاروق المنشاوي لابلاغه أن بعض اعضاء التنظيم قبض عليهم وتلقى تعليماته ... غير انه لم يتيسر له الاتصال به ... انتهى ..

وقدم يحيى حسين غيابا الى محكمة أمن الدولة العليا برئاسة جمال الدين محمود وتوفي الفريق علي جمـال الدين محمود اثناء نظر القضية فأعيدت محاكمته غيابيا امام اللواء حسن التميمي ...

وصدر الحكم الغيابي ضد يحيى حسين بالسجن لمدة خمسة وعشرين عاما ...

وكان هو في ذلك الوقت يتمتع بالحريه فـي ارباض السودان ..

جريمته الشنعاء انه عاين .. واتصل .. واوصل .. وقابل .. وقال .. فكان لا بد مـن صدور الحكم ضـده بالاشغال الشاقة المؤبدة ...

وكان يكتب بجوار اسمه بالادعاء كلمة (هارب) وكان هو الشخص الوحيد الذي انطبقت عليه هذه الصفة (1) .

(1) كان يكتب بجوار اسم من يقتل من التعذيب كلمة « هارب » .

الفصــل الرابــع

معتقـل القلعـة

معتقل القلعة هو جزء مـن قلعة صلاح الديـن ...
القلعة التي قتل فيها محمد علي المماليك ... وقد اعد الجزء الذي كنا نسكنه ألانجليز .. وهو لا يتسـع لأكثر من ثلاثمائة معتقل ... ويستعمل كمكتب للتحقيقات تابـع للمبـاحث العـامة ...

وكان التحقيق يجري هناك .. وفي داخـل زنازينه الضيقة السيئة التهوية وضعنا اربعات أو خمسات رغم أنها - اي الزنزانة - لا تتسع لأكثر من اثنين على الأكثـر .. ولكن ... للضرورة أحكام كما يقولون ...

وكان في القلعة في ذلك الوقت حوالي اربعمائة معتقل ... باكورة التحقيق التابع للمباحث العامة فـي أيامـه الاولى .. ناهيك عن التحقيق الآخر الذي يجري في السجن الحربي .. بالاضافة الى وجود حوالي مائتين في معتقـل الفيوم ... وهم الذين أمضوا مدة عشر سنوات كاملة صادرة ضدهم من محكمة الشعب في عام (١٩٥٤) ...

مكثت عدة ايام في معتقل القلعة ورغم هـذا فذكرياتي عن الطعام ضئيلة جدا .. ويبدو أنهم لم يكونوا يقـدمون طعاما لأحد فيه .. والذي كنـا فيه اعظم مـن الاحسـاس بالجوع او البحث عن الطعام .. ولعلي لم اتذوق طعاما طيلة المدة التي قضيتها في القلعة ..

واذكر ان أحد المخبرين قد اعطاني نصف كوب صغير من الشاي السيء الصنع في مساء سيء العذاب ...

واذكر ايضا انني حاولت أن أضع شيئا من الجبن في فم زكريا المشتولي قبل أن يذهب الى ربه .. ولست أدري من اين أحضرت هذا الجبن ...

وقد عرفت فيما بعد ان الطعام في معتقل القلعة يقوم به متعهد أطعمة يأخذ على اطعام كـل معتقل قدرا مـن المال .. وليست هناك فرصة للربح خيرا من تلك الظروف التي كنا فيها ... والمتعهد يعرف انه ليس هناك من يهتـم بذلك الأمر البسيط ... الطعام ...

كانت الزنازين في سرداب مكشوف على الجانبين ... ينزل اليه المرء بسلالم حجرية .. وكان ينادى علـى أي شخص للتحقيق .. فيفتح له رقيب عجوز باب الزنزانـة ... وكان على هذا الشخص أن يذهب عدوا الـى مكان التحقيق .. ولا بد له اذا أراد أن يرحم نفسـه مـن بعض العذاب أن يقف عاريا أمام المحقق .. فعليه حيال هـذا أن يخلع ملابسه اثناء عدوه سريعا والسياط تلاحقه ليوفر على نفسه (علقة الأفتتاح) ...

وكان يمكث اكثر من يومين في التحقيق عاريا ..
وعند عودته لزنزانته لا يمكنه احد من البحث عن ملابسه في طريقه .. فاما أن يجدها مصادفه وقد تلوثت وتمزقت او لا يجدها .. ويذهب عاريا الى الزنزانة ...

وكان كل الموجودين في القلعة مصابين بجروح قاتلة..
ولم يكن هناك أي اشراف طبي أو حتى أية اسعافات اولية !!
كل هذا رغم وجود شخص سمين جدا يدعى (موريس)
كانوا يدعونه بالطبيب ولكنه لم يقدم شيئا لاسعاف المصابين.
والانكى من هذا اننا سمعنا عن اشتراكه في قتل عدد من المصابين بعد ذلك ...

ومما اذكره في هذه الايام التي قضيتها في معتقل القلعة ذلك الشاب الوسيم الظريف الذي كان يقف خجلا في عنبر التحقيق .. ولم اكن اعرف هويته ... بل ظننته للحظة أحد المعتقلين .. كنت أراه ينظر في اشفاق بالغ الى الذين يحقق معهم ... ثم فهمت بعد ذلك انه ضابط صغير تحت التمرين .. وسرعان ما سلموني اليه ليتمرن على التحقيق معي ..

وعلى طاولة صغيرة كانت بعض الاوراق الخاصة بي ..
خطابات شخصية نسيت مضمونها ومرسلها .. بعض الدراسات عن المسيحية والتاريخ الاسلامي .. مفكرة صغيرة لعام (١٩٦٥) وقلب الشاب الوسيم الظريف هذه الاوراق..
ثم اقترب مني وسالني :

ـ هل لديك هاتف في منزلك ؟

وكانت اجابتي :

ـ لا ..

واذا بهذا الشاب الوسيم الظريف يصفعني صفعة هائلة كادت ان تقلع عيني .. واقترب أكثر .. ثم كلمني في صوت كالفحيح :

ـ سنبدأ بالكذب يا ابن الكلب ؟

وانتابني الذهول فعلا لم يكن في منزلي هاتف .. وقلت له وانا اتهاوى من فرط الدهشة والألم :.

ـ اقسم لك انه لا يوجد في منزلي هاتف ...

وانهالت الصفعات والركلات من الشاب الوسيم الظريف .. الذي كان ينظر الينا منذ لحظات باشفاق .. وجعلت اؤكد له انه لا يوجد هاتف في بيتي .. واخبرته انه يمكنه التأكد من هذا بسؤال مصلحة التلفونات عن طريق الهاتف الموجود في المعتقل ... ثم ما اهمية ان انكر وجود هاتف في بيتي وخاصة ان الحكومة لم تحرم التلفونات بعد ... كل هذا بلا فائدة ...

كان الضابط شديد الغباء ... وأحسست انه سوف يقضي علي .. وفي النهاية لم أجد فائدة من المقاومة ، واعترفت بحيازتي لتليفون فى المنزل بين ابتسامات الظفر التي علت وجه الوسيم الظريف ..

وتصورت ان الازمة قد مرت بسلام ولكنني فوجئت به يسألني عن رقمه وارتبكت ... وهممت ان اذكر له اي رقم لولا انني لاحظته ينظر في المفكرة الصغيرة الموضوعة على الطاولة والتي كانت تخصني ..

وتذكرت يوم اشتريت هذه المفكرة في أول العام ..
وكيف كنت املأ البيانات المكتوبة في الصفحة الاولى ...
الاسم .. العنوان .. رقم التلفون ... وكان ذلك في منزل
احد الاصدقاء الذي اقترح علي ان اضع رقم تلفونه في
الخانة الخاصة برقم التلفون .. واسرعت بترديد الرقم ...
وانهال على الضرب من الشاب الوسيم ومساعديه ..
وصارت الشتمات واللعنات تنصب فوق راسي كأنها الحمم
وصاحبنا يتمتم :

ـ ما فائدة الانكار ؟ نحن نعرف عنك كل شيء يا ابن
الكلب ...

وانقذني منه ضابط يدعى عبد المنعم الصيرفي ..
ولكنه ضربني بعد ذلك في هذا اليوم حتى اوشكت على
الموت ... فقد كان يفترض انني في قيادة تنظيم الاخوان..
وعلى هذا فكان لزاما علي أن أخبره ببيانات مفصلة عن قيادة
التنظيم ... ورغم ان هذا هو المحال بعينه فانني لم اجد
هناك جدوى من الانكار ... فقد كان يجب على العاقل ان
يبدأ بالاجابة ... اي اجابة ... فور سماعه السؤال ...
وكان عليه الا يتوانى والا يتردد .. بل يتكلم ويتكلم ...
وبطلاقة .. معترفا بأشياء لم يرتكبها .. وان يكون واسع
الخيال .. فلا بد لقصته من حبكة وعقدة ... ولا يجب ان
يشتم منها المحقق رائحة الكذب ... هذا او العذاب
المهين ...

اخذني عبد المنعم الصيرفي الى فناء المعتقل ...
وانتحى بي ناحية وصار يتودد الي توددا ظاهرا ... فبدات
الطمأنينة تغزو قلبي .. ثم سألني ببساطة ... للمرة

العشرين ... عن تنظيم الاخوان واللجنة الخماسية القائدة. وتصورت أن الحديث قد أخذ جانبا بشوشا .. وان الرجل سوف يصدقني وقلت له ببساطة أنا الآخر :

ـ لا علم لي باللجنة الحماسية ... ولا اظن ان هناك ما يسمى بهذا الاسم .

ـ ولماذا تظن هـذا ؟

ـ هذا انطباعي .. ومدى علمي ايضا ..

ـ اذن فلا علاقة لك بالاخوان وبالتنظيم ؟

ـ كـــلا

ـ يبدو ان الذوق لن ينفع معك ...

وانقلب الرجل الى وحش كاسر ... وصاح صيحـة عظيمة ... اتاه الزبانية بعدها من كل مكان .. وخلعوا عني ملابسي التي كان قد سمح لي بارتدائها واصعدوني الى عنابر التعذيب بالصفع والركل والشتم ...

ولم يكن هناك ليل او نهار .. فقد كان المشهد مستمرا بلا انتهاء .. وبلا أمل في الانتهاء .. فمرة نجد انفسنا في عنابر التعذيب .. ومرة أخرى في الزنازين .. او في دورات المياه .. والحوادث تجثم علـى صدورنا بثقلهـا فنشعـر بالاختناق ...

مواطنون ابرياء جاءوا بهم مـن كل مكان بـلا ذنب ولا جناية ... ومحققون يضربون الناس بحثـا عـن سر لا يعرفونه ... والكل تطحنه رحى ثقيلة من العذاب ...

وانتهت مجزرة القلعة ذات صباح وكان نتيجتها ثلاثة من القتلى وربما أكثر من ذلك وحوالي أربعمائة جريح بجروح بالغــة . . .

واخرجونا من الزنازين اربعات أربعات . . وملأنا فناء المعتقل . . واختفت الهراوات والسياط وآلات التعذيب. . حتى وجوه المعذبين لم نعد نراها . . ولم يكن بين الجالسين معنى لهذا الاجراء . . .

ومن تلك الكوة التي دخلنا منها يوم ودعنا العالم دخل كهل في الخمسين . . . نحيل القد . . . دقيق القسمات. . وفي جانب مــن فمه تقبــع سيجارة مشتعلة لــم يمسها بأصابعه . . وفــي صحبته شاب فــي الثلاثين . . . اسمر اللون . . بليد القسمات . . .

وتكلم هذا الشاب :

ــ حضرة الطبيب يريد أن يكشف عليكم لا تخافوا لن يكون هناك تعذيب بعد اليوم .

ــ كل من في جسمه اصابة بالغة يرفع يده . .

ورفع أغلب الناس أيديهم . . فقد كانت اصابتهم أكثر من بالغــة . .

وصار الطبيب يمر بين الصفوف وعلى وجهه علامات الالم والاشفاق والحزن . . وكان يلعن الجلادين جهرا كلما رأى اصابة بالغة . . . ويأمــر مرافقه الشاب بكتــابة اسم صاحبها في كشف معه . . . وتشجع الجميع . . . وصاروا يسبون الحكومة ويلعنون الظلم والظالمين . . والطبيب يهــز رأسه موافقا ومشجعا ومواسيا ثم ينصرف الى آخرين حتى مر بنا جميعا . .

كان هذا الطبيب هو العميد أحمد رشدي قائد معتقل التعذيب بأبي زعبل !!! بعد ذلك بساعات قلائل !!! وقد احضر كل من قيد اسمه في الورقة وضربه ضربا قاتلا ... ورغم انني لم أسجل نفسي في كشفه الا انني لم انج من هذا الضرب القاتل عندما ذهبنا الى أبي زعبل .. فقد اكتنفني لحظة مروره شعور غامض منعني من أن أريه الاصابات التي اصبت بها ...

وركبنا (شاحنات) مغطاة في الطريق الى ابي زعبل .. وفي بابها الخلفي يقبع مجموعة من جند الشرطة بملابسهم الرسمية فيظن من يراها في الشارع العام ان الشاحنة مليئة بالجنود ... وفي حقيقة الامر انها زاخرة بالمعتقلين من الداخل ... وكم كنت ارى قبل هذه التجربة كثيرا من الشاحنات على النحو الذي وصفت به ولم أعرف الا في هذه اللحظة انها كانت تقل اخوة سبقونا في هذا الطريق ... كنا حوالى ثلاثين في الشاحنة التي ركبتها ... وكان معنا بدر القصبي الذي حملناه في بطانية نظرا لاصابته الخطرة (١) ...

وفي الطريق كنت ارى الناس يعيشون كما كانوا والحياة لم يتغير فيها شيء .. ولا أحد يهتم بما يدور ... وربما كانوا لا يعلمون شيئا عما جرى في القشرة (٢) السيارات تزمجر والمارة يصخبون وشاب يغازل فتاة على محطة الاتوبيس ... والحياة في تدفق سيال ...

---

(١) توفي عليه رحمة الله بعد وصولنا الى ابي زعبل بنصف ساعة ...

(٢) القشرة هو اسم سجن التعذيب أيام سلاطين المماليك ...

واذكر ان جميع من كان معي في الشاحنة .. كانوا يبتسمون ابتسامات سعيدة تعكس ما في قلوبهم من ارتياح لخروجهم من ذلك العذاب المقيم ... وكان معنا شاب رقيق الحال من الناحية النفسية ... اعترف بما فعله وبما لم يفعله ... وكنا نزجره وننصحه بالتريث بلا فائدة ... وكان هذا الشاب يظن ان التحقيق قد انتهى الى عقوبتنا باحكام تتفاوت على حسب جرم كل واحد فينا .. وان هذه الاحكام قد صدرت .. واننا بصدد تنفيذها ... وسوف نعلم عنها عندما نصل الى المكان الذي نقصده ... وصرت أفهمه ان الاحكام التي تصدر لا بد لها من قضاء ... محكمة ... اجراءات ... ولكنه قال لي .. :

ــ في مصر لا يهم هذا كله يا صديقي ...

وصار يتمتم في سخرية بالغة .. :

ــ قضاء ... محكمة ... اجراءات ... هل نسيت انك في مصر بلد العجايب ..

وكان منطقه اقرب الى الصواب من منطقي ..

وانبرى ثانية :

ــ عندما نذهب الى الليمان علينا بتأييد الحكومة .. وساعتها سوف يفرجون عنا ولو كنا فعلنا بهم الافاعيل ...

كان الامر بالغ الزراية ... كئيبا ... موحشا عميق الوحشة .. فيم كل هذا ؟ ولماذا ؟... ولحساب من ؟

اسئلة تدور في ذهني .. ثم تطن طنينا مخيفا .. وتطغى بضجتها على العذاب الذي أحس به من جراحاتي ..

الفصل الخامس

معتقل أبي زعبل

كان وصولنا الى معتقل أبي زعبل عصر يوم من أيام السبت .. وكنا فرحين سعداء فقد انتهى التعذيب ، هكذا كان الظن، وتبينت المباحث العامة عدم جدوى هذا .. وسوف نقضي بأبي زعبل فترة من الوقت حتى تندمل الجراح ... ثم يذهب كل منا الى حال سبيله ... وسرت بيننا روح نشطة طروب لتفشي هذه الظنون فينا ... حتى اننا ضحكنا كثيرا عندما كانوا يسلموننا الى القائمين على الامر في أبي زعبل ...

وكان واحد منهم يتسلم المعتقلين وهو يعدهم ويحصيهم واحدا واحدا .. واذا بذلك الذي جاء بنا يقول له :

ـ استلم يا اسماعيل ولا تخش شيئا ، من ناحية العدد ... اي عجز أستطيع أن أرده لك ..

واستلم اسماعيل دون ما خوف من عجز يكون في عدد هؤلاء الآدميين .. وكم شغلتني ذكرى هذه العبارة الصغيرة كثيرا .. ترى كيف كان يسدد هذا الرجل عجزا في الآدميين ؟ من اين يأتي بهم ؟.. لا شك انه كان يستطيع ان يأتي بالعدد الناقص من أي مكان ... ولن يهتم أحد بما يحدث لأحد ...

كنا نحمل معنا بدر القصيبي كما قلت ... وكانت حالته سيئة للغاية ... وعند بوابة المعتقل قابلنا الرائد فوزي .. الذي صار فيما بعد قائدا للمعتقل لفترة من الوقت .. وعلى وجهه امارات التأثر لرؤية بدر القصيبي وهو (معجن) من الضرب ... وطلب منا أن نضعه في زنزانة من الزنازين .. ولم نر بدرا بعد ذلك ابدا .. وخرج من التاريخ .. أو ربما دخل فيه ... ولم يعلم أحد بمكان قبره ...

كان المعتقل عبارة عن مبنى من ثلاثة طوابق .. في كل طابق اثنتا عشرة حجرة . يطلق على كل واحدة اسم عنبر .. وباب فناء هذا المبنى المحكم له قضبان من الحديد ولسوره ايضا . مما يجعل هذا الفناء كالقفص المحكم الغلق ... وكان المبنى موجودا في منطقة ليمان ابي زعبل .. وهو مبنى جديد من حيث البناء .. فقد أقيم على انقاض مبنى آخر قصفته الطوربيدات اثناء ضرب الاذاعة في عام (١٩٥٦) فهو لا يبعد عنها اكثر من مائتي متر .. وكان موعد تسليمه لمصلحة السجون من المقاول بعد أيام من وصولنا ... ولكن المباحث العامة قد تعجلت المقاول كما سمعنا وكان المفروض ان يستقبل الشيوعيين .. وشاءت ارادة الله أمرا آخر ...

دخلنا المعتقل قبل مغيب الشمس وكان العمال ينتهون من بعض الاعمال على عجل .. وعند وصولنا لم نلتق بوجه واحد من رجال التعذيب .. ووجدنا بدلا منهم وجوها سمحة رقيقة سمراء .. وعاملونا في لطف شديد ... وتسلم كل واحد منا ثلاث بطانيات من الصوف .. جديدة لم تستخدم قبل ذلك .. ووعاء (قروانه) وملعقة وطبقا صغيرا جديدا من الألمنيوم اللامع ..

كان الامر بهيجا يبعث على الاثارة والسعادة .. وصار كل واحد منا يمني نفسه بحياة رغدة مريحة في هذا المكان الجديد الانيق الذي كان قد صنع توا ..

وكان العنبر يتسع لثلاثين شخصا على الاكثر - وضعوا فيه فيما بعد مائة وثلاثين معتقلا - واودعت مع آخرين في العنبر رقم واحد . وكانت سعادتي كبيرة لاني وجدت كل أصدقائي معي في نفس العنبر ... وفرش كل واحد منا نمرته (١) .. وتمددنا في فرح وهناء .. وجاء الطعام وكان عبارة عن عدس مطبوخ بالزلط والحصى في أوان حديدية قذرة يطلق عليها اسم (كانتين) .. ورغم قذارة صنعه وقذارة الاناء الموجود فيه والكمية الكبيرة من الرمل والزلط الموجود بكل (كانتين) الا اننا أكلنا بشهية بالغة فمعظمنا لم يكن قد أكل شيئا في معتقل القلعة على الاطلاق..

ووزع علينا صابون قذر جدا من صناعة المساجين المقيمين في الليمان .. ولكننا لم تكن نرى الصابون منذ أيام .. وأسرعنا الى دورات المياه نغسل ما تبقى من ملابسنا

---

(١) النمرة : هي كل حاجيات المعتقل بلغة السجون والمعتقلات .

التي تجمدت عليها أشياء كثيرة أوضحها الدماء التي اريقت في معتقل القلعة ... وكانت دورة المياه مكونة من مكانين وموضعين للتبول وحوض به ثلاثة صنابير للمياه بتسع لاستعمال ثلاثة اشخاص في وقت واحد ... وفي المكانين رشاشان سرعان ما تزاحمنا عليها جميعا ... واخذ كل (دشا) باردا لطيفا ازال ما لحقه من وعثاء السفر وسوء المنقلب في الدنيا ...

وكان هنالك من لا يستطيع ذلك لكثرة جراحاته .. فبقي على قذارته في سعادة ورضي لابتعاده عن الارض المخوفة في القلعة ... والقيت نظرة على المكان الذي ننام فيه.. المكان ذي الباب القفصى (١) فوجدت ان معظم قاطنيه من الشيوخ المتقدمين في السن .. الا حفنة صغيرة من الشباب أصدقاء يحيى حسين وكنت أنا منهم ..

ومن طريف ما عرفت عن هؤلاء القاطنين انهم ينتمون الى جميع الجمعيات الاسلامية الموجودة في مصر مثل جمعية الصراط المستقيم وجمعية دفن الموتى الخيرية والجمعية الشرعية وجمعية التبليغ الاسلامية .. وجمعيات اخرى كثيرة وبعض افراد من حزب التحرير الاسلامي .. كل هذا بالاضافة إلى افراد جماعة الاخوان المسلمين .. وكان هناك من لا ينتمون الى اي جمعية ... دينية كانت أو غير دينية. ولكنهم كانوا جميعا على علاقة ما بمن تهمهم هذه الأمور ...

وفوق هذا كله كان هناك من لا ينتمي الى شيء .. ولم تكن له ادنى علاقة بأي شخص له صلة بهذه الشؤون..

---

(١) كان الباب على هيئة قضبان حديدية تسمح بادخال الطعام من فرجاتها .

وكم كان عجبنا كثيرا من وجود مثل هؤلاء ... ولكن هـذا العجب لم يدم بعد ذلك كثيرا ...

وقضينا تلك الليلة في التعارف وتبادل النكـات والقفشات والحديث عما جرى في القلعة من ويلات .. كنت اظن اننا سوف نعيش في احزان الذكريات القريبـة والمها الشديد ... وكم كان صداها يلفه رؤوسنا وعقولنا . وكم كانت آثارها على ملابسنا الممزقة والجراح الغائرة وبقع الدم الحمراء ... كانت الايام القليلة التي أمضيناها في القلعة تطن في مخيلتنا كأنها قرن متكامل من الزمن .. وكان المكان جديدا غاية الجدة بهيا كل البهاء ...

وجاء الصبح سريعا ومع خيوطه الاولى استيقظنا في نشاط وتوضأنا للصلاة ووقفنا جميعا بين يدي الله عز وجل يلفنا شعور عظيم بالطاقة والقوة اللامحدودة ، كان الأمل يملأ نفوسنا بانتهاء العذاب .. وانتهينا من الصلاة وكانت تختلف كثيرا عن تلك التي كنا نصليها خارج أسوار المعتقـل ... ولا يفوتني هنا ان اذكر ملحوظة لا مندوحة عن ذكرها ...

لم تسمح لي الظروف الخاصة بي في القلعة وظروف بعض ما رايت وصاحبت بتأدية فريضة واحدة فالعذاب لم ينقطع لحظة واحدة ، فقد كان الامر في معتقل القلعة اشبه ما يكون بيوم الحشر ...

بدات شقشقة العصافير تخالط اصواتنا ونحن نقرأ القرآن رخيما عذبا في اليوم الأول من أيام أبي زعبل ، ولـم نكن ساعتها نعرف أن أيامه أكثر هولا وعذابا من أيام القلعة. ولم نكن نعرف أيضا اننا سوف نترحم علـى أيام القلعـة ونتمنى لو كانت قد دامت ...

اشرقت الشمس وقدم الينا الطعام ... عسل أسود ملأ كل واحد منا طبقه الصغير منه .. ومعه قطعة من الجبن الرديء الصنع .. ورغيف من الخبز البارد الذي اختلط دقيقه بمواد غريبة وحشرات مختلفة عرفت منها الصرصور.

وتناولنا الطعام وانصرفنا الى الحديث .. وكم ظننا ساعتها أن الأمر سيطول بهذا الهدوء الى حد بعيد .. وفوجئنا بأحد الضباط يمر بنا من خلال الباب القفصي.. ووجدناه يقف ويتحدث معنا .. وكان هذا الضابط معقولا لا يحب العنف ... وكان دوره في التعذيب لا يكاد يذكر.. ومثل هذا كانت له في نفوسنا أعظم المكانة . وكان أحد الذين حققوا معي في القلعة .. وهو الوحيد الذي أنهى معي التحقيق دون ضرب أو تعذيب .. ومضت نوبته معي كأنها الحلم الرائع في ليلة صيف شديد الحر : كان يناقشني ويسألني ويستفسر ويلف ويدور .. كان يستعمل عقله وذكاءه ولم يستعمل يده وعصاه حتى ذلك الوقت ... وتحدث الرجل من خلال الباب وفهمنا من حديثه ان الأمر قد انتهى وليس هناك بعد ما حدث في القلعة غير اعتقال لفترة لن تطول وأصيب البعض بلوثة من الفرح والإحساس بالفرج .. ولكن كان هناك من يجلس وكان الامر لا يعنيه في قليل او كثير .. على وجوههم الصارمة يأخذ الايمان بالله خطوطه العميقة فيحيل نظراتهم الى صفاء وأمن وراحة ... كان هذا هو الجيل الذي صنع جماعة الاخوان أيام الشيخ حسن البنا ... ويحضرني من اسماء هؤلاء ثلاثة لا ادري أين هم الآن .. الشيخ حامد الطحان ... والاستاذ محمود عبده ... أحد قادة الاخوان في حرب فلسطين عام (١٩٤٨) والحاج عبد الرحمن حسب الله أحد ستة أشخاص تكونت

منهم جماعة الاخوان في أيام بعيدة من عام (١٩٢٨) في مدينة الاسماعيلية ... كان يكفي أن ينظر المرء الى واحد من هؤلاء ليشعر باليقين والثقة بالله فيزداد قوة على تحمل القلق والعذاب ...

وكانت هناك في ذلك اليوم الاول من أيام أبي زعبل نماذج أقل درجة واكثر خوفا وقلقا .. كان معنا مفتش في وزارة التربية والتعليم كثير الخوف شديد البخل ... ترك في الامانات خمسة جنيهات ... ويردد في كل لحظة انه على استعداد لأن يترك لهم (المباحث العامة) جنيهاته الخمسة على أن يخلو سبيله ... لم يكن يدري ان الأمر اعظم من جنيهاته تلك ...

جلسنا نستمع الى نوادر ذلك الطيار الذي لم يفطن الى ذلك الجانب المظلم من العالم ... وكان الكل يضحك للصور المضحكة التي رسمها جهله بالقضية والامر برمته ... وتصورنا أننا سنقضي اجازة جميلة في معسكر جميل ... وما هي الا لحظات حتى انقبضت قلوبنا وشملنا هم عميق .. حركة غير عادية في المعتقل .. هرج ومرج .. أناس يدخلون ويخرجون .. ثم جاءنا أحد المخبرين وكان فظا غليظ القلب ثقيل الكف اسمه (الملا) واخذ أسماء الموجودين وكتبها في أوراق كانت في يده (الطرشاء) .. ومر بجميع العنابر وفعل معها نفس الشيء ...

ثم جاءونا بالملابس الخاصة بالمعتقلين .. ملابس مليئة بالقمل رغم أنها لم تلبس قبل ذلك ... صنعت من قماش هو الى (الخيش) أقرب .. خالية من التناسق والاستواء . وطلبوا الينا تسليم كل الملابس المدنية التي كنا نرتديها ..

وتسلم كل واحد فينا سروالا لا ينطبق بحال علــى جسم صاحبه ... ومئزرا مبهدلا وقميصا داخليا شديد العفونة كأنه قد نقع زمنا طويلا في مرحاض .. وطاقية سخيفـة المنظـر ...

وكان الحر شديدا يومها .. وفعلت هــذه الملابس فعلها القاتل مع الحر الذي يكتم الانفاس ... واني اذكـر كيف بكى ذلك الطيار الذي كان يقص علينا حكاياته بكـاءا مرا حينما طلبوا اليه ارتداء تلك الملابس ... وكم توسل اليهم أن يتركوه بتلك الأخرى التي جاء بها من لندن .. وقد طلب منه (الملا) أن يحمد الله انهم تركوه مع حياته ..

ومن بين القضبان التي كانت بالباب رأينا الجند يحملون الى الداخل بالمعتقل كميات كبيرة من الهراوات والخيـزران والسياط تكفي لجلد قارة بأكملها .. وكانوا يلفون بحمولتهم المخيفة على بلاط المعتقل فتحدث صوتا يبعث الخوف فـي اكثر القلوب شجاعة .. وارتفع صوت من بين زملائنـا : «يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » ... وكان لهذه الآية مفعول السحر فـي نفوس الناس .. فقد دوى العنبر بذكر الله وبقراءة القرآن. وعادت الطمأنينة الى القلوب ...

وبينما نحن على هذه الحال اذا بصوت جهوري يهـز جدران المعتقل .. وشعرت بطنين في أذني .. لم أتبين الصوت الذي صار يتكرر في رتابة .. ثم رأيت كل مـن في العنبر ينظر الي ، كانوا ينادونني ... وعاودني الخوف .. فقد كان لهذا النداء معنى لا يفهمه الا الذي ذهب الى هذا المكان .. كانت مظاهر الراحة حلما ووهما ... لقد جاءت

الصاخة .. وبدا الجد ... وعاودنا شجن لا ندري متى ينتهي .. واقترب الشيوخ مني وملأوا اذني بآيات القرآن وتقدم من الباب ليراني ذلك الذي ينادي من مكان بعيد .. ورآني وفى لحظات كان امامي وبيده مفتاح ... وفتح باب العنبر وأخرجني وطلب الي ان الف عصابة على عيني ... وفعلت .. وسحبني حافيا كالاعمى فقد كانت العصابة محكمة ولم اكن ارى منها شيئا على الاطلاق .. وصار الرجل ينزل ويصعد .. ثم يسير بي على ارض مليئة بالعشب الجاف والشوك .. واحسست انه غادر المعتقل وذهب بي الى مكان آخر ...

واستيقظت حواسي على صوت مخيف اعرفه جيدا كان صوت الرائد ف . ع الذي فعل بي الافاعيل بالقلعة اثناء التحقيق العجيب الذى كان هناك ..

وبلهجة ممطوطة مزعجة سألنى :

ـ هل أتيت ؟

لم ارد عليه .

ـ حظك سيء للغاية ...

وتمتمت في صوت خفيض :

ـ ولماذا ؟

ـ احقا لا تعرف لماذا ؟

ثم اتبع تساؤله ببعض الشتائم البذيئة ... وقبل ان أجيبه كانت الركلات تنهمر علي كالمطر .. وفي ثوان كنت معلقا في الهواء وسط الظلام الذي صنعته العصابة حول

عيني .. وصارت دقات الهراوة تنزل رتيبة على قـــدمي فأشعر بألم عميق مخيف يتضاءل بجانبه الموت ..

واشتد بي الهول فصرت أرجو أن يتركني مذكرا اياه انني مسلم ومصري مثله ، ولكنه أصر على أن أتكلم .. ولم يكن كلانا يعرف شيئا عن الامر الذي ينبغي علي الكـلام فيه .. وكنت في كل مرة أذهب فيها الى التعذيب انوي بيني وبين نفسي الا أصرخ ... وكنت أفشل في كل مرة.. نعم كنت أفشل في كل مرة ... فقد كان العذاب فـوق احتمال اي مخلوق .. أو على أقل تقدير فـوق احتمالي أنا شخصيا ...

وبعد ان اخذت علقة ساخنة تفككت عظامي من جرائها، فكوا قيدي وانزلوني من هـذه (التعليقة) وأمروني تحـت الضرب أن أقفز على قدمي حتى لا يتورما . ومن ثـم ليمتلئا بالصديد ... وهذا بطيعة الحال ليس من باب الرحمة .. ولكن حتى أستطيع تحمل قـدر آخر من العـذاب حينمـا يريدون ...

ولم أستطع الوقوف فقد أصيبت اعصاب الساق بخدر منعني من القيام واقفا .. واشتد الضرب وحمـي وطيس الصفع والركل حتى أصدع للأمر وانفـذ (خطوة التنظيم) التي يطلبونها .. ووقفت بعد لأي ... وصرخ الرائد يطلب مني الاسراع في الحركة .. واثناء تنفيذي شعرت بقـدمي ينغرزان في لوحة خشبية قد رشق بهـا عـدد كبير مـن المسامير الحادة المسنونة .. وصرخت من الألم .. وسقطت علـى الارض ...

وكان هذا المشهد نهاية العلقة الاليمة التي اخذتها في هذا اليوم ...

وعلى مستوى معتقل ابي زعبل بدأ التعذيب او بدأ التحقيق أو بدأ كلاهما معا ؟ فهما اسمان لحقيقة واحدة .. وكان يبدأ في الساعة العاشرة صباحا .. ويستمر حتى منتصف الليل .. ويمضي المحققون ... حضرات الضباط وحضرات ... يذهبون الى منازلهم .. ويوكل بالمعتقلين من يجهزهم ليوم جديد في التحقيق ... حتى يأتي حضرات الجميع في العاشرة من الصباح الجديد ...

واستقر هذا النظام بعد يومين ... وعدت الى العنبر فوجدته قد امتلأ بآخرين ... لقد وفد معتقلون جدد الى المكان ... العنبر الذي لا يتسع لأكثر من ثلاثين صار به اكثر من ضعف هذا العدد .. ارتميت منهوكا على النمرة التي تضاءل الحيز الذي كانت تشغله قبل ذهابي الى التحقيق .. جاء أناس من سائر البلدان .. وكلهم تحت وطأة دهشة عميقة مما جرى ويجري ...

اخذوني في اليوم التالي بنفس الطريقة الى نفس المكان الغريب .. وفي هذه المرة لم يبداوني بالجلد والضرب كعادتهم ... كنت مغمض العينين .. والتقطت أذناي حركات كثيرة .. كان من الواضح أن هناك شيئا بالغ الاهمية في ذلك المكان الذي يقع خارج المعتقل ... وبينما اسحب الى حيث يريدون صفعني واحد منهم على قفاي ... وامتلأت دهشة ... ليس من الصفعة ولكنني سمعت احد الضباط ينهى ذلك الذي ضربني ... وتعجبت ولم أستطع لحظتها أن أخمن سبب ذلك التصرف من الضابط .. أول مرة اسمع فيها من ينهي عن الضرب ...

وجاءني الرائد ف . ع ــ وكنت اعرفه من صوته ــ وقال لــي :

ــ انا آسف يا فلان .. لم اكن أود أن يحدث ذلــك لك ... ولكن هذه تعليمات القيادة العليا للقوات المسلحة ..

فقلت لــه : ــ

ــ ماذا تعنــي ؟

فقال لي في لهجة منذرة :

ــ جاءتنا قائمة بها بعض الاسماء ..

وسكت برهة فقلت له :

ــ لست أفهم .

هذه الاسماء يجب تنفيذ حكم الاعدام في اصحابها.. هذه القائمة موقع عليها من سيادة المشير عبــد الحكيم عــامر ...

ــ ماذا تقصد ؟

ــ اسمك في اول قائمة المطلوب اعدامهم ..

ــ هكذا دون محاكمة .

ــ وماذا تعني المحاكمة ؟ صدقني ... لا معنى لها على الاطلاق .. وقلت له :

ــ ومتى يتم هــذا ؟

ــ الآن ...

وسمعت وقع اقدام تأتي مهرولة عن بعد .. واقتربت .. ثم وقفت .. وسمعت صاحبها يسال من بين لهاثه !!

ـ اين المحكوم عليهم ؟

وامسكني الرائد من ذراعي وقال :

ـ هذا أول الخمسين الذين سيعدمون اليوم ..

وسلمني لصاحب الصوت الغريب الذي مشى بي خطوات ... وغرقت في افكاري ... اهكذا تنتهي حياتي ؟ بهذه البساطة .. وهذه الطريقة .. لا اظن ان المشير عبد الحكيم عامر يعرفني ... لماذا يكرهني هؤلاء الناس هذه الكراهية العميقة ... ؟ ماذا فعلت بهم ؟

وتذكرت آمالي وأحلامي وقراءاتي والبهجة التي كنت اشعر بها عندما اقرا كتابا جديدا ، كل هذا سوف ينتهي من الدنيا بعد لحظات .. اين القانون ؟ اين الحضارة ؟.. أين التقدم ؟.. وضاعت صورة العقل في مخيلتي وانتابني غثيان ... وشعرت برغبة جارفة للتقيؤ ... كل هذا وانا سائر خلف ذلك الذي يسحبني .. الى مكان تنفيذ الاعدام ... هكذا ظننت ..

شعرت ان الذي يسحبني قد توقف ... فوقفت وارهفت حواسي كلها .. واقتربت اقدام اخر ... وسمعت صوت الرائد ...

ـ ماذا تتمنى قبل أن تموت ؟

• ــ ان اصلي ركعتين استعدادا للقاء الله ... كانت النهاية سريعة ولم استعد لهذا اللقاء ...

ــ وماذا تعني صلاتك ؟

ــ كأني أستأذنه سبحانه وتعالى في المثول بين يديه .

ــ كلا .. لن نأذن لك بالصلاة ... هــذه خــارج صلاحياتنا ...

وتقدم طابور الاعدام مرة أخــرى ... وأثناء السير انقض علي رجل لا اعرفه .. وطبعا لا أراه لأن العصابة على عيني .. وبسرعة القاني على الارض .. وفي لمح البصر كانت يداي في القيد الحديدي خلف ظهري وهنا زايلني الخوف على عكس ما توقعت ... لقد دنت الساعة ... سوف أذبح بعد لحظة او تكاد ... انها أعظم النهايات في الدنيــا ... سيقتلونني وامضي بعدها الــى الله هائما فــي الرضوان الأعظم ...

انهضني الرجل ... أصعدوني درجا مرتفعا استطعت أن أراه من خلال ضوء بسيط يتسلل من اسفل العصابة.. ثم أوقفوني لحظة في مقدمة ممر حجري يبدأ مــن نهاية السلم ... وأمرت بالتقدم بعد ذلك .. في خطوة بطيئة .. المفروض انها تبعث الخوف والرهبة في القلب ... ثــم أوقفوني بعد أن مشيت كثيرا فوق هذا الممر ...

وانحدر بصري الى قدمي من خلال الفرجــة الضيقة في العصابة ورأيت أنني أقف على شفا جرف هار .. ويكفي دفعة صغيرة لأسقط في هذه الهوة التي ليس لها قرار يبدو امام ناظري ... ولفوا انشوطة حول عنقي .. هو الاعــدام شنقا .

وتقدم مني الضابط عصام الشوكي (١) وطلب ان اتلو صلواتي الأخيرة فقد ازفت ساعة الانتقال الى العالم الآخر ...

وصرت ادعو الله دعاء حارا أن يغفر لي ذنوبي .. ولم اعد اشك في قرب قدومي عليه ... وتذكرت في هذه اللحظة الذنوب التي ارتكبتها .. وكم تألمت لحظتها، وتمنيت لو عاد بي الزمن كي اكفر عنها ولا اعود اليها أبدا ...

وشدوني الى الانشوطة وتحت قدمي الهاوية العميقة البعيدة القرار .. وكانت اصوات السياط الملتهبة تأتي من بعيد تحمل صرخات حارقة تملأ الجو حولي .. ولكن كل هذا لم يخفني بقدر ما كنت أتمنى أن يغفر الله لي بذهابي اليه على هذه الصورة .. وتذكرت امي واخواتي واصدقائي وكل من كانت له علاقة بي .. ولفتني نسمات عذبة ورقيقةمن السماء .. واستغرقت في دعائي واستغفاري من جديد ..

وكانت الوجوه تداعب خيالي .. وجوه من كل مكان.. مكثت على هذه الحال عدة ساعات .. شعرت بعدها انقدمي قد فقدتا القدرة على حملي ... الانشوطة حول عنقي قوية وضاغطة .. وأصوات الصراخ والسياط تأتي مولولة من بعيد وأنا ابصر عند قدمي هوة سحيقة بعيدة القرار ... واقترب أحد الضباط .. وبصوت كالفحيح امرني أن أقفز الى الهاوية ... وقلت له :

ـ تستطيع أن تدفعني اليها .. اما انا فلن أقفز أبدا ..

(١) احترقت به طائرة عام (١٩٦٨) كما سمعت في معتقل الطرة .

وصرخ الرجل :

ــ قلت لك اقفز .. هذه اوامر المشير ..

وشعرت بالاغماء وبدات أتهاوى .. وسقطت مــن شاهق ..

كان بيني وبين قاع الهوة حوالي متــر ونصف ... وصوره الوهم على انه قاع عميق .. سحيق .

قادوني بعد ذلك منهك القوى الى حجرة تصل اليها الصرخات من قريب ... ورفعوا العصابة من فوق عيني فوجدت أمامي الرائد ف . ع والملازم عصام الشوكي .. وقال الرائد ف . ع :

ــ لقد كان حظك حسنا ... لقد اتت الأوامر مــن المخابرات بتاجيل اعدامك .. وبعد قليل سوف يخابروننا بسبب ذلك ... وسكتنا برهة ضئيلة ثم انبرى يسالني :

ــ عندك معلومات تحب أن تخبرنا بها ؟

وهززت راسي نفيا ....

ــ هل لك رغبة في أي شيء ؟

وهززت راسي نفيا للمرة الثانية ...

وقدم لي مقعدا من الخشب شبيها بالكرسي ــ وما هو بكرسي ــ وطلب مني الجلوس واعطاني سيجارة ... ثم أشعلها لي والعجب يملأني .. وسرعان ما زال العجب حينما وجدته يقدم لي ورقة وقلم وقال :

ــ الآن ستكتب اعترافاتك ... وغشيتني سحابة ..

ـ عن أي اعترافات اتكلم ؟

فقال :

ـ انا سأملي عليك وانت تكتب .. من واقع كلامك الذي سبق ... ، فشكرت له في نفسي هذا الموقف .. فقد اعفاني من الضرب والتعذيب والاهانة وكم كنت اتمنى أن يفعل ذلك من اللحظة الاولى لاعتقالي ..

واستدرك الرائد :

ـ لا تظن انني سوف أملي عليك أكاذيب لم تفعلها ..

ورددت عليه بسرعة :

ـ العفو يا سعادة البك ... وهل هذا معقول .؟

ـ كل المسألة انني سأنظم أقوالك واضعها في ثوب واضح ..

ـ وأنا على استعداد لأي شيء ..

وكتبت من املائه تسع صفحات فولسكاب، مضمونها خطة اعددتها لقلب نظام الحكم .. وكان هذا مع بعض الاصدقاء .. وكنت متأكدا انهم لن يحكموا عليّ بأقل من عشرين عاما أو اكثر .. لأن اعتقالي ـ كما يقولون ـ حال دون تنفيذ هذه الخطة ..

وعندما دخل الليل انصرفت راضيا سعيدا مع المخبر الى المعتقل ، فقد ظننت ان التحقيق قد انتهى .. ولم يعد امامي سوى انتظار المحاكمة والذهاب الى الليمان لتكسير الحجارة تحت وهج الشمس الحارق ... وكم كنت سعيدا لهذه الافكار التي ستجعلني أغادر هذا المكان اللعين ....

وعند دخولي العنبر كان به ضعف العدد الذي كان به في الصباح .. ووجدت أن فناء المعتقل الشبيه بالقفص قد امتلأ بعشرات الاشخاص العراة من ملابسهم .. ومنهم من يمشي عاريا على اربع وهناك من يسوقه بالعصا ... ومنهم من يجري عاريا مغمض العينين حتى يصطدم بالجدار المقابل فتشج رأسه .. ويقوم ليجري من جديد ومنهم المعلق على السور ذي القضبان الحديدية مصلوبا عاريا مغمض العينين أيضا ... وارتميت في ركن أفسحوه لي واستغرقت في نوم عميق .

استيقظت منهك القوى من جراء ما حدث معي في التحقيق .. والتف الاخوة حولي يسألونني الاخبار .. ماذا حدث ؟ ماذا قالوا لي ؟. وماذا قلت لهم ؟ وكان بعض السذج يسألون متى ينصرف الجميع الى منازلهم ؟.

كان العنبر قد اكتظ بساكنيه .. واصبح الامر بالغ السوء من كثرة المعتقلين وعادوا لا يهتمون بطعامنا .. فيأتون بالوجبة بعد موعدها بساعات طويلة... وكان يأتينا أيامها لحم لا تستطيع الأنوف أن تشم رائحته الكريهة ولا تقدر الأسنان على تمزيقه .. أقوى الاسنان ... فكنا نكتفي أن نلوكه بعد أن نغسله بالصابون لنتخلص من بعض رائحته ...

كان معنا في تلك الايام من شهر سبتمبر أطفال لم يصلوا سن البلوغ وكانوا يرتعدون من الخوف الشديد ، من أفراد جماعة التبليغ .. أطفال صغار على كل هذه الآلام ......

وكان معنا شيوخ جاوزوا سن النشاط والحركة لا يكفون عن قراءة القرآن والتوسل الى الله سبحانه وتعالى

ان يقيهم في شيخوختهم تلك غوائل العذاب والخوف ..
وكانوا يبدأون في قراءة « قل هو الله أحد » بلا انقطاع اذا
ما دعي أحد الى التحقيق وكان الخوف يبدو نبيلا حزينا في
عيونهم المذعورة وقسماتهم المتوجسة ... واغلبهم لم يمثل
أمام المحقق أبدا .. كانوا من جمعيات شتى وكلهم لا يفقه
السياسة ولا دخل له بها ، وكانوا في دهشة من وجودهم
في ذلك المكان ....

كان الامر آنذاك اكبر من الدهشة وابعد عمقا من
الخوف .. لقد ربط الخوف والجوع والالم بين هذه
النفوس جميعا فالتحمت في رباط قدسي بليغ ....

الفصل السادس

عودة إلى التحقيق

ثلاثة ايام مكثتها بالعنبر وانا اظن ان التحقيق قـــد انتهى ... رايت خلالها من الباب صورا شتى للتعذيب .. وكان مراى هذه الأشياء اشد الما على نفسي من وقعه على اصحابه ... كان الباب يطل على فناء السجن الذي اطلـق عليه اسم (المحمصة) .. وكان يترك في هذا الفناء مـــن ينتظرون التحقيق .. او من يعدون له ... الكل عاريـــا تماما كما ولدتهم امهاتهم .... وكان الضباط ينصرفون في المساء الى بيوتهم ويتركون هؤلاء دون نوم حتى يحضروا فــي الصباح ليستكملوا مـا بدأوه بالأمس .. ولـم يكونوا يتركونهم دون نوم فقط .. وهو بحد ذاته عذاب بالغ الألم عميق التأثير لا يشعر بفظاعته الا من اكتوى به .. أن يترك الانسان بلا نوم اياما واياما .. بل كانوا مع هذا يستخدمون معهـــم اعتى انواع القســـر والقهر بنوعيه .. البدنـــي والروحي ... وقد قدّر لي أن أكون واحدا منهم بعد زمن يسير ...

كانوا يقفون ووجوههم الى الحائط وعيونهم تلفهـــا عصابة سميكة .. وعلى هذا فلا يدري واحد متى انتهـى الليل ومتى جاء النهار .. والويل كل الويل لمن تحدثه نفسه بنزع هذه العصابة التي تنشر الظلام في راسه ... وعلى كل واحد ان يكرر عبارة بعينها بصوت مسمـــوع ..... واذا بدا في أول الليل فلن ينتهي من هذا الا عندما يأتيــه الامر في مطلع الصباح .. عبارة بلهاء لا يتوانى عن تكرارها وألا هبّت عليه ريح العذاب الساخن ... « البحر فيـــه ملوخية » هكذا .. يرددها ساعات طوالا وبصوت عال ... او يختار رقما ما .. سبعة او ثمانية .. أو تسعة .. اي رقم ويردده بصوت عال طوال الليل .. فيصير المكان أشبه بمستشفى المجانين ..

ومن يدخل هذا المكان عليه أن يودع النوم والطعـــام أيامـــا لا يدري عددها .. وله كوب من الماء كلما تـــدور الشمس .. واذا أراد أن يقضي حاجته فليقضها حيـــث كان ..

وكان هناك من يعلق داخل (المحمصة) على السور الحديدي ساعات طوالا ... حتى يسقط اعياء من ارتفاع شاهق فتشج رأسه أو تكسر ساقه او اي شيء .. ولـم يكن هذا محل اهتمام من أحد ..

وكان يعن أحيانا لبعض الضباط أن يتسلى علـــى ساكني (المحمصة) .. فياتي ليقضي معهم وقتا طيبا .. يتسلى فيه بكل الالاعيب المعذبة التي يعرفها او التي يتفتق عنها ذهنه في ذلك المكان الغريب ...

كان يصف الجميع صفا طويلاً .. كل خلف الآخر .. ويقف هو في نهاية الصف .. ويصفع ذلك الذي يقف في نهايته صفعة قوية مدوية تعوي في سكون الليـــل ... ويطلب منه أن يوصلها الى الذي أمامه .. وهكذا حتـــى تصل الى ذلك الواقف في آخر الصف .. والأدهى مـن هذا .. أن سيادة الضابط ينظر الى ساعته ويحسب الوقت الـذي تصل فيه رسالته المؤلمة الى غايتها ... ويتأفـف ويستاء من التهاون والتكاسل من جانب البؤساء الـذين اشتركوا في اللعبة .. فيزمجر ويتوعد ويهدد .. ويطلب زمنا أقل وسرعة وحماسة وقوة ...

ويكون الجميع قد فقدوا قدرتهم على التفكيــــر .. واصيبوا بالاعياء البالغ .. فيخفت حسهم الإنساني فـي هذه اللعبة القذرة .... ويحاول كل واحد أن يرضي هذا الضابط على أمل في تخفيف العذاب .... فلا يجـد أمامه حينذاك الا أن يصفع الذي أمـامه بسرعـة ونشاط ويصير الأمر بعد مضي ساعة من الوقت شيئا مهينا مزريا مؤلما يبعث على الرثاء والحزن .... بينما يضحك الضابط ملء شدقيه ،،، ولا يكون هناك غير ضحكته هو وحده .

ومن الضباط الذين أجروا اللعبة في صف كنت فيه الرائد (ز. ع) .

ومما فعله هذا الضابط أيضا أن جعل صفين يقفـان متقابلين .. كل في مواجهة الآخر ويطلب من كل واحد أن يصفع الذي أمامه .. وكانت تتم هذه اللعبة على التناوب.. كل صف يضرب الآخر مرة ... وينتظر الضابط (الرائد) ليـرى من الذين سيسقطون اعياء .. وتستمر اللعبـة ساعات وساعات .. وكلما سقط فرد من الاعياء يضحك الرائد ملء شدقيه .

وكان كل واحد من المعلقين فوق السور بيده ورقة..
أو بجسده ورقة .. كانوا يسمونها (الروشتة) بها طريقة معاملته .. يعني الاسم .. ومتى يذهب الى دورة المياه ..
ومتى يتناول كوبا من الماء .. ومتى يتناول رغيفا .. ومتى يضرب وكانت المدد تقاس بالأيام... الا في حالة الضرب..
ساعتان بين (العلقة) و (العلقة) .

وفي صبيحة يوم وجدت نفسي في (المحمصة) مع زقزقة العصافير .. واخذت ما يسمونه (بالطريحة) وهي (علقة) بالهراوات .. تناولت فيها ما لا يقل عن مائتي هراوة ثم علقت على الحديد .. وكان علي أن آخذ هذه (الطريحة) كل ساعة ونصف ...

وظللت معلقا ثلاثة ايام دون نوم .. وما افظع هذه الذكرى .. فهي جملة تأخذ من وقت القارىء أقل من ثانية من الزمن ، ولكنها كانت بالنسبة لي آنذاك شيئا يجل عن الوصف ولا تحيط به الكلمات .. كانت شيئا يذكرني بالله ... ويخوفني من الآخرة وكان معلقا بجواري أحد الاطباء (ع) ـ سمعت انه ترك مصر الى غير رجعة ..
واشفق علي رغم أن حاله ليست أحسن من حالي ..
ونصحني أن اتظاهر بأني مصاب بمغص كلوي حاد ..
وشرح لي الاعراض .. ولكني آثرت أن أحتفظ بهذه الاعراض فقد يأتي يوم أو تأتي لحظة اجد فيها ما هو أعتى مما رأيت ...

وقد يسألني سائل .. أهم يهتمون بالمغص الكلوي ؟؟؟
نعم بالقدر الذي يحفظ عليه حياته حتى ينتهي التحقيق ..
فحرصهم على المعلومات يجعلهم حريصين على بقائنا احياء لفترة اطول ..

وجـاءت اللحظة .. فتحت عليّ أفواه الهـــراوات المتوحشة تحت اشراف الرائد (ف. ع) وأوشكت عـــلى الجنون من شدة الألم فصرت أصرخ صراخا جنونيـــا .. مدعيا أنني أصبت بمغص كلوي حاد... فكفوا عن ضربي.. فقد كانوا لا يريدون موتي كما بينت قبل معرفة ما عندي مما يظنون .

وجاء الطبيب الوغد وحقنني بالاتروبين .. وأوصى بأن استريح وكانت استراحتي أن أجلس مستيقظا بجانب السور طول الليل ولم يسمح لي بالنوم بطبيعة الحال ...

وكانت ليلة ليلاء ... وكان عذابي في مقاومة النوم الذي يهب عليّ من كل جانب يفوق ضرب السياط والكي بالنار .. والعبرة لمن جرب ...

وجاء الصباح وكان علينا أن ننام على ظهورنا ونرفع ارجلنا في الهواء .. وننتظم في صف طويل ليستعرضنـا العميد (أ. ر) وفي صحبته ثلاثة من رجاله الغلاظ ... وكانت الاوامر الجديدة أن نرتدي الجاكتات فوق العصابة التي حول أعيننا .. فلا يبدو من وجه أحدنا شيء بالمرة .. ويقترب سيادة العميد من أول الصف ويسأل :

ـ من انـت ؟

فيجيبـــه :

ـ انـا فـلان ..

ويذكر اسمه .. وكان العميد يحفظ كل اسم ومـا يتعلـــق به من موضوعات التحقيق فيسأله عن بعـــض الموضوعـات .. وعادة لا تعجبه الاجابة .. فيأمر احـــد مرافقيه في صوت خفيض :

ـ خمسين ...

او يقول ثلاثين ... وكان يقول مائة احيانا ..

ومعنى هذا الرقم ان يضرب المسؤول بالهراوة عددا لا يقل عن الرقم الذي ذكره سيادة العميد .. وكانت الثلاثون تعني خمسين ... والخمسون تعني ثمانين .. وهكذا .... وكان الشخص النائم في آخر الصف عليه ان يظل رافعا رجليه حتى يصل اليه سيادة العميد والويل كل الويل لمن يخفض رجليه من التعب ففى هذه الحالة يبطشون به بطشا مخيفا ..

وكان طابور الصباح هذا يستمر من ساعتين الى ساعتين ونصف .. بعد ليلة منهكة من التمرينات الرياضية والاجبارية والضرب بالهراوات والتعليق على القضبان الحديدية حتى تنسلخ الاقدام .... وبعد أن ينتهي هذا الطابور يصعد كل واحد الى مكانه من السور ذي القضبان .. وكل ينتظر الضابط الذي يحقق معه ..

واتاني الرائد (ف. ع) فقد كان من قرعتي .. او كنت من قرعته .. ووقف تجاهي خارج السور .. فغضب عندما رآني معلقا بملابسي .. واستدعى المخبر الموكل بالمحمصة في تلك الليلة وسبّه سبا قبيحا لسماحه لي بارتداء الملابس .. وافهمه المخبر انني مصاب بالمغص الكلوي .. وإن هذه اوامر الطبيب (..) وسب الرائد الطبيب سبًا مقذعا .. وانتهت المناقشة بأن نزلت من فوق السور وخلعت ملابسي كلها وضربت علقة ساخنة... صعدت على اثرها الى مكاني الاول ... واقترب الرائد ولمعت عيناه ببريق مخيف وفي يده ولاعة (رونسون) مشتعلة وصعقت عندما رايته يقربها من جسدي العاري...

وتصورت لحظتها أن هذه الشعلة اذا اقتربت من جسدي فانني سأموت ولا ريب ، ولكنه حرق بها أجزاء متفرقة اختارها بلا اهتمام .. ولم امت رغم أن انفي قد امتلأ برائحة الجلد المحترق ...

ويبدأ الحوار اللزج السخيف :ـ

ـ ألا تنوي الكلام ؟

ـ عن أي شيء ..

ـ في هذه المرة نريد شيئا محددا ..

ـ وما هو ؟

ـ ماذا تعرف عن يحيى حسين ؟

ـ لقد قلت كل ما عندي .. ولم يبق هناك جديد اقوله ..

ـ هل كنت تعرف انه عضو في تنظيم الاخوان ؟

ـ كلا ..

ـ متى قابلته آخر مرة ؟

ـ منذ عدة شهور

ـ كأنه لم يمر عليك قبل هربه الى السودان ؟

ـ لم يحدث ..

ـ اذن فانت عضو في تنظيم الاخوان ؟

ـ كلا .

ـ لماذا لست عضوا فيه ؟

ـ من الصعب الاجابة على هذا السؤال .

ـ وضّح كلامك ؟

ـ اترى انه ينبغي أن أكون عضوا في تنظيم الاخوان ؟

ـ هذا ما ينبغي عليك أن تشرحه لنا ..

ـ لم يعرض عليّ أحد الاخوان أن اشترك في تنظيمهم الذي تقصد ..

ـ رغم انك تعرف ذلك العدد الكبير منهم ؟

ـ رغم اني اعرف العدد الكبير منهم ..

ـ انت تكـــذب ..

ـ واين الحقيقة ؟

ـ الحقيقة انك عضو في تنظيم الاخوان ويجب أن تعترف بهذا .. اتفهم ؟

ـ افهـــم ..

ـ هيه ... ماذا قلت ؟

ـ وماذا يمكنني ان اقوله بعد قرارك .. انا عضو في تنظيم الاخوان ..

ـ وعلى علاقة بقيادة التنظيم !!!!!!!

ـ وعلى علاقة بقيادة التنظيم ؟.

ـ بل انت أحد قادة التنظيم ..

ـ ....

ـ لماذا تسكت ؟

ـ لا ادري ما اقــول ..

وبصوت كالفحيح يقول الضابط : (الرائد)

ـ بل عليك أن تقول والا ساءت عاقبتك ..

ـ اتفقنـــــا

ـ على اي شيء ؟

ـ انا احد قادة التنظيم ..

ـ ستكتب اعترافا بهذا اليس كذلك ؟

ـ شريطة أن انجو من الضرب ..

ـ اتفقنا سوف تنجو من الضرب .. هيه .. مـــاذا ستكتب ؟

ـ ساكتب اني عضوا في جماعة الاخوان ..

ـ ثــم ماذا ؟

ـ واكتب انني احد قادة التنظيم ..

ـ ثم تعطينا التفاصيل عن تنظيم الاخوان وعن قيادة التنظيم ...

ـ هذا المحال بعينه يا سيادة الرائد ، لن اكتب حرفا اكثر من الجملة التي ذكرت لك .. وافعل ما بدا لك فليس في استطاعتي اكثر من هذا .. صدقني .

وتـدور رحى العذاب ضروسا بشعة تحمل معهـــا التعاسـة والألم والشقاء ...... كان ذلك قبل قـــرار

الاعتقال العام الذي صدر بتاريخ ٦ ــ ٩ ــ ١٩٦٥ فقد تغير كل شيء بعد صدور هذا القرار الذي ينص على اعتقال كل من سبق اعتقاله .. ويفوض وزير الداخلية باعتقال من يشتبه فيه .. ولهذا قصة أخرى ..

جاء اكبر وارد الى المعتقل قبل قرار الاعتقال العام يوم ٣ ــ ٩ ــ ١٩٦٥ وكان في ذلك الوارد شقيقي الذي لم تكن له في ذلك الحين علاقة بشيء سوى معرفته بأحد أصدقائي .. وفي مناسبة ما أرسل له خطاب مجاملة عاديا .. وضبط هذا الخطاب عند صديقي هذا الذي اعتقل بسبب علاقته بيحيى حسين هو الآخر ، وكانوا يقبضون على اية اسماء يجدونها مكتوبة في أوراق ما في حيازة احد المعتقلين ... ولو كانت هذه الأوراق صكوك دين ...

وكان هناك ما اخفيه عن المباحث العامة .. ولم يكن ما اخفيه ذا علاقة بأمن الدولة ونظام الحكم في نظري ... وكشف واحد من أصدقائي عن بعض ما أخفيه بعدما جهدت نفسي في اخفائه طيلة أيام التحقيق الأولى .. وكان هذا الصديق قد اعتقل بسبب وجود بطاقة تهنئة تحمل اسمه في منزل احد الذين سبقوه وتمكنت من مقابلته لحظة حضوره وأفهمته سبب اعتقاله وان عليه أن ينسى ذلك الامر الآخر الذي حرصت على اخفائه .. ولكن الرجل سامحه الله صار يهذي من شدة العذاب وقال ما يعرف وما لا يعرف ... وأتوا بي ووقعت الواقعة .. واظلمت السماء .... وقامت الدنيا وقعدت ....

ثم جاء يوم ٦ ــ ٩ ــ ١٩٦٥ الذي كان شبيها بيوم الحشر .... فقد وصلت دفعة ضخمة من المعتقلين من

اهل الصعيد ما يزيد عن سبعمائة شخص يمثلون نصيب معتقل التحقيق من هذا القربان البشري الذي يقدم على مذبح القوة ....

امروا جميعا أن يضعوا أمتعتهم في مكان واحد فصار كل واحد يقذف أمتعته في ذعر حقيقـــي .. وما هي الا لحظة أو تكاد حتي تجرد الجميع من ملابسهم ... وكانوا يجرون ويتخبطون وهم عراة من شدة الضرب كالفئران .. المذعورة في مصيدة كسره .... وكان المكان لا يسمـــح لمناورات واسعه .. ولا يستطيع واحد فينا أن ينسى منظر الهلع البالغ الذي ارتسم في أعين هؤلاء البائسين وهـــم يرون جثثنا معلقة على الحديد وقد سالت منها الدماء .. وفاحت رائحة الصديد .. فكانوا يسقطون مـــن الخوف والذعر والانهاك ..

وكانت الصرخات تدوي في كل مكان أما نحن الذين علقنا على الحديد قبل وصولهم فقد تحررنا من الخوف الى حد ما وهذا بعد أن الفنا الجلادين ... ولكن الشيء الذي لم استطع أن أتحرر منه رغم محاولاتي المتكررة فكان الألم..

وكم حدثت نفسي أن الألم عبارة عن فكرة موجودة في مركز ما من مراكز المخ .... وبفكرة أخرى أقوى منها استطيع ان انقلب على الفكرة الاولي .. وهكذا يختفي الألم ليفسح مكانا للفكرة الاولى .. كنت احدث نفسي هـــذه الاحاديث في كل مرة اعلق فيها وأركز تفكيري وسرعان ما يتبدد كل شيء عند أول لفحة من لفحات العذاب وربما كان تصوري هذا صحيحا .. ولكن لا بد للفكرة البديلة أن تفوق الألم عنفا وسيطرة وقوة ...

كان التعذيب في أبي زعبل يعتمد أول ما يعتمد على القهر الروحي .. التجريد من الملابس فتضيع قيمة الانسان أمام نفسه ويشعر انه شيء مباح لا قيمة له ولا وزن ثم الاهانة الفائقة التي تهز كيانه هزا عنيفا مزلزلا .. وبعد ذلك الضرب المبرح والكي بالنيران والتجويع والعطش الشديد ...

وكانت آلة الضرب الاساسية في أبي زعبل هي (الهراوة) ولذلك حكمة .. فالهراوة لا تترك أثرا كبيرا في الجسد ، أو من الممكن أن يداوى هذا الأثر بعد حين قريب أو بعيد ... ولو أنها قتلت أشخاصا في أحيان كثيرة ..

وكانت المباحث العامة لا تلجأ للسياط الا فيما ندر .. وربما لمزيد من الارهاب والتخويف فلصوتها فحيح يبعث الخوف في اشد القلوب جسارة .....

ويكمن الفرق بين المباحث العامة في أبي زعبل والمباحث الجنائية العسكرية في السجن الحربي أن الاولين أكثر مهارة وفنا في التعذيب ... وكان الآخرون أشد قسوة واستهانة .. فلا عجب أن يكون عدد القتلى في السجن الحربي ضعفه مرتين في معتقلات المباحث العامة ....

كان صديقي الذي كشف ما كنت أخفيه يقضي معي امسيات شهر أبريل ومايو من عام النكبة عام (١٩٦٥) في استذكار الدروس .. ولعل من المناسب أن أعرج على ما كنت أود أن أخفيه عن المباحث العامة .. مجرد نشاط ديني وثقافي .....

دراسة لأحوال العالم الاسلامي .. القاء محاضرات يعدها بعض منا ، تلقى كل حين من الوقت عندما يتسنى ذلك .. وكنا قد بدأنا بداية طيبة حتى فتح باب الاعتقال والتشريد .. وكان لقاؤنا للاستذكار .. ثم لاستكمال هذا النشاط .. ولو كنت حكيت لهم هذا لما صدقوني .. وفكرت وقدرت ورأيت أن أخفي هذا عليهم ... ثم جاء المسكين وقص عليهم القصة ببساطة في أول الامر .. ولم يكن هذا التبرير كافيا عندهم فلا شك أننا كنا نجتمع في مؤامرة لقلب نظام الحكم ...

كان الشعب بأكمله يتآمر لقلب حكم عبد الناصر ... هكذا كانت تظن أجهزة الأمن العديدة في مصر .. وكان لا بد لصديقي أن يعترف ان الامر مؤامرة بعد أن أخذ نصيبا من الضرب يفوق العقل .. وحتى يكون التآمر واضحا لا بد من (سيناريو) جيد .. وكان من الصعب اعداد مثل هذا (السيناريو) الجيد ... بعكس الاعترافات .. فمن السهل التوقيع على الاعترافات .. وقد رأيت أنني في جولة التحقيق الأولى كتبت ما أملاه عليّ الرائد (ف. ع) ووقعت عليه بامضائي .. ولعلي لا أذكر الآن ماذا كتبت بالضبط .. ولكنه كان (سيناريو) هزيلا لتآمر مزعوم ضد حكومة كرهها الشعب من أعماقه وصار ينتظر ساعة الخلاص منها ....

قلت للرائد لا مانع من توقيع اعترافات جديدة .. ولكن .. أليست الاعترافات الأولية كافية ؟!!!!

وامتلأ صوته بالغضب وهو يزمجر :

ـ احنا بنزور يا ابن الكلب ؟.. نريد حقائق ..

ولم يكن أمامي عند ذاك غير الاستسلام للتعذيب واطفاء السجاير في انحاء جسدي حتى أن وجهي صار (منقرشا) من كي السجاير لمدة طويلة ... وزاد الطين بلة اعتقال آخر من أصدقائنا .. وكان شديد الخوف يصيبه الفرق من أقل شيء .. وساعد هذا في اعداد (السيناريو) الخاص بالتآمر المزعوم ... ولم تعد هناك فائدة من الدفاع بل علينا أن نتقن الكذب حتى ننجو من العذاب ... فالاعتراف بالتآمر لا يكفي .. بل يجب أن تكون الاحداث متناسقة ومنسجمة مع بعضها البعض .. وكم مات كثير من الشهداء من أجل هذه الغاية بلا فائدة ..

وكانت العبارة المشهورة على السنة المحققين :

ـ سوف تموت ليس في هذا شك .. ولكن لا بد أن تتكلم أولاً ...

كان الأمر كما قلت .. أجهزة الامن تنظر الى الشعب كله على أنه متهم بالتآمر ضد نظام عبد الناصر !!!! وكل ما ينقص هذه الأجهزة هو جمع أدلة الاتهام لتقديم المواطنين للمحاكمة .... وكان لا بد لهم من هذا ليثبتوا انهم جديرون بالوظائف والمناصب التي يتسنمونها.. فلو كانت الأمور هادئة مستقرة والشعب منصرفا الى حاله يصنع الحضارة كما يقول بعض المؤرخين فما فائدة وجود هذه الأجهزة التي لا أول لها ولا آخر ؟.. ومن أين تدفع المخصصات الضخمة الكثيرة للحفاظ على أركان الدولة ؟ كانت المسألة مسألة حياة في المقام الأول بالنسبة للمباحث العامة والمباحث العسكرية والمخابرات العامة .. والمخابرات العسكرية.. ومخابرات رئاسة الجمهورية ومكتب المعلومات

التابـع للمأسوف على شبابه سامي شرف سكرتير عـبد الناصر .... وكان لكل من هؤلاء أكثر من مخبر في كـل شارع وكل قرية وكل مدينة وكل مصلحة حكومية أو غير حكومية .... كان عدد المخبرين التابعين لأجهزة الأمـن أكثر من عدد المواطنين في ذلك الزمن الغابر الذي ذهـب ولن يعود .. باذن الله ...

الفصل السابع

ذكريات من معتقل أبي زعبل

مكثت في ابي زعبل سبعة عشر يوما .. فقد دخلته يوم ٢٨ اغسطس وغادرته في ١٣ من سبتمبر من نفس العام (١٩٦٥) ولم اذق في هذه الأيام طعما للراحة في اية لحظة من اللحظات .. وقد يسر لي وجودي في (المحمصة) ان ارى أشياء عجيبة غريبة فمثلا :

اعتقلوا أحد المواطنين وعند تفتيشه وجدوا في جيبه قائمة فيها أحد عشر اسما وكان من الطبيعي أن يعتقلوا أصحابها .. ولم يكن صاحبنا يعلم .. وكان معلقا بجانبي على الحديد وزاد اشتباه رجال المباحث في أصحاب هذه الأسماء عندما وجدوهم من الطلاب ولا يزيد أكبرهم عن عشرين عاما .. فلا شك ان هؤلاء هم (الخامة) الجيدة للتآمر ضد نظام الحكم واستمر ضرب أصحاب الأسماء اكثر من ثلاثة أيام حتى يعترفوا بما كانوا ينتوونه من انقلاب ضد

نظام الحكم بلا فائدة.. فلم يكن هناك تنظيم ولا ما يحزنون، واشرفوا جميعا على الموت وفي النهاية اضطروا لسؤال ذلك الرجل الذي وجدوا في جيبه القائمة وكان من السخرية البالغة أن يعلم الجميع بعد ذلك أن صاحبنا قد اختار هذه الأسماء ودونها دون علم اصحابها ليشكل منهم فريقا من كرة القدم في نادي القرية ...

ومن الأشياء الظريفة ايضا انهم يكتشفون حديثا معبنا دار بين زيد وعمرو من الناس في مقهى من المقاهي في يوم من الأيام ... فيتم اعتقال رواد المقهى لاستكمال التحقيق بالطريقة التي نعرفها والتي حكيت عنها آنفا ....

كان الأمر بالغ الاثارة وبالغ الغرابة ايضا ففي ابي زعبل رايت الابن وهو يجلد اباه بالسوط والأب يصرخ والابن يصرخ ايضا وقد انتابت الجميع حالة شبيهة بالصرع الذي كان يحكي عنه (دستويوفسكي) في كتاباته ...

ولن انسى تلك الليلة من ليالي أبي زعبل بعد أن امتلأ المعتقل عن آخره بالمعتقلين اذا بهم يصدرون امرا بأن يضع كل واحد العصابة على عينيه ولعلكم تذكرون ان بناية المعتقل مكونة من ثلاثة طوابق وصدر الأمر الثاني وكان ينفذ تحت الضرب بالهراوات ..

كان على جميع العنابر إن تتجمع في فناء المحمصة.. وكان على جميع المعتقلين أن ينزلوا على أيديهم وأرجلهم ويصدرون صوتا شبيها بصوت الاغنام عندما تصدر عن المرعى الخصب ولم يكن النزول بنظام بطبيعة الحال .. فالكل عرايا والكل معصوب العينين فكانت موجة عارية من البشر تنساب بائسة خائفة على درج المعتقل تحت وطأة الهراوات وصيحات التخويف والقهر ...

واكتظ فناء (المحمصة) بذلك العدد الكبير . وكان لا بـد من جلد هذا العدد جميعا واحدا واحدا ولم يكـن الحـرس يكفون لهذه المهمة الشاقة فاستعانوا بكل مـن وجدوه في ذلك اليوم من موظفين مدنيين وممرضين والذين يعملون في مختبر قريب تابع لليمان ابي زعبل ... وجلـد الجميع جلدا وحشيا رهيبا لم ينج شيخ او مريض او جريح او طفل .. وسمعنا انها اوامر من رئاسة الجمهورية بجلد ذلك الجمهور الغفير ....

جلد في هذا اليوم اكثر من الفي شخص يسبحـون الله تعالى .. وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيـز الحميـد .. كل مـن كان في المعتقل في ذلك اليـوم ، كان الجميع يعصبون اعينهم ويتخبطون وهم مذعورون وتعالى صـراخ الجميع في الفضاء مع عتمة الليل القادمـة ولا مغيث ...

الشهود على هذا الحادث كل من كان في معتقل ابي زعبل السياسي في النصف الاول من سبتمبر (ايلـول) عام (١٩٦٥) واغلبهم لا يزال على قيد الحياة .

ولن انسى في ذلك اليوم ضابط الشرطة حديـث التخرج الذي كان يبكي بحرقة في زاوية من مناظر التعذيب المفزعة .....

وفي ابي زعبل كان بجواري على بعد امتار شخص ظل يطلب الماء ليشرب طول الليل ولم يسقه احد وفاضت روحه عند الفجر وسكن الى الابد .

ولعل احدا من الذين استضافتهم المباحث في ابي زعبل لا ينسى ليلة ٣١ اغسطس الرهيبة يوم اعلن عبد الناصر بنادي الشباب السوفياتي بموسكو عن اكتشاف مؤامرة للاخوان المسلمين وانه عفا عنهم عام ١٩٥٤ ولكن هذه المرة لن تكون هناك رحمة .. وقد صدق.. فقد تحول المعتقل بعد هذا التصريح الى سلخانة بشرية (مسلخ) .

وفي ابي زعبل رايت شقيقي الأصغر مع عدد كبير من اصدقائي وهم يجلدون عراة من ملابسهم ...

وفي ابي زعبل ودعت كل امل في المستقبل في حين سلمنا ضابط الترحيلات وكان الضابط الذي استلمنا قد دقق في الاستلام .. وصار يحصي المعتقلين بحرص .. فقال له :

ـ لا تهتم اي عجز في العدد ممكن ان اسدده ... كانما يسلمه قطيعا من الخراف ..

وفي ابي زعبل رايت الدكتور احمد الملط استاذ جراحة القلب وهو يركل ويضرب بكل ادوات الضرب المعروفة وغير المعروفة حتى فقد النطق ..

وهناك ايضا رايت مئات الابرياء لا يعلمون سبب القبض عليهم وحتى الذين اعتقلوهم لم يكونوا يعلمون ايضا.

في ابي زعبل عرفت ان وسائل التعذيب والارهاب التي استخدمتها المباحث العامة ضد المواطنين فاقت كل ما تم في عصور الارهاب والاضطهاد عند الرومان او

الفرس .. أو في عهود الاضطهاد الديني المختلفة أو محاكم التفتيش فقد قرأت عن هذا في كتب التاريخ ولكن ما جربته بنفسي كان شيئا مختلفا تماما عن كل ما سبق أن قرأته وكان يفوقه همجية وفحشا وامعانا في التنكيل ...

ولا انسى ذلك اليوم الاول لاعتقالي يوم تكلم معي أحد الضباط بالمنطق وقال لي :

ـ لقد سمعت أنك مثقف ودائم الاطلاع والقراءة .

ـ لعل هذا يشفع لي عندك ...

ـ بالنسبة لي لن أفعل معك شيئا .. لا يمكنني أن اضرب انسانا مهما كان المبرر قويا وملحا .. ولكن هل قرأت شيئا عن محاكم التفتيش ؟

ـ نعم ....

وفي صوت فاحت منه رائحة الحزن قال هذا الضابط ، ما ستراه في هذا المكان يفوق كل ما قرأته بشاعة ، وقلت له في فزع :

ـ ولكن .. ايفعل هذا معي ؟

ـ نعم .. ولماذا يستثنونك ؟

ـ الا يشفع لي شيء ؟

ـ ولا الله نفسه يستطيع لك شيء ..

ثم اكمل بصوت كفحيح الافاعي :

ـ هذا المكان لا يدخله الله ولا يعلم عنه شيئا .. وسترى بنفسك مدى صدقي .

ــ وماذا أفعل ؟

ــ تكلم .. قل ما تعرفه .. احك عن كل شيء .. المؤامرة واتصالك بالمتآمرين ..

ــ ليس هناك شيء من هذا ..

ــ لا فائدة ، المفروض انك تعرف ..

وهكذا كان كل انسان يدخل هذا المكان الذي لا يدخله الله ــ في زعمهم ــ عليه أن يكون متآمرا صد الحكومة .. والا فهو يغامر بروحه تحت وطأة تحقيق لا يعلم كيف تكون نتيجته ....

ولقد صدق الضابط معي في واحدة وكذب في الاخرى ..

صدق حين قال ان التعذيب الذي ساراه يفوق ما كان يحدث في محاكم التفتيش في ظلمات القرون الوسطى .. فقد كان هذا ما رأيته فيما تلا ذلك من أيام ثقال طوال .. تنكيل جعل الكثير يتمنى الموت في كل دقيقة وكل لحظة .. وآلام نفسية مزقت نفسي وروحي من جراء ما رأيت من اناس يلفظون انفاسهم تحت وطأة السياط .. وانا أعلم انهم أبرياء وكان منهم من يتمتع بروح بطولية عالية .. فقد كان بعضهم يسخر من الجلادين ويهزأ بهم وبينه وبين الموت لحظات ....

وكذب الضابط حين قال : ان هذا المكان لا يدخله الله ولا يعلم عنه شيئا ..... فقد كان الله هناك ... ورايته مرارا وانا تحت وطأة الهول القاسية .. وما اظن انني كنت أعرفه سبحانه وتعالى معرفة حقة قبل أن أذهب الى ذلك المكان الذي يقوم على الشاطيء الآخر من الحياة...

في ابي زعبل رايت المهندس الزراعي (م.ن.ز) ذلك الذي كنت أعرفه منذ مدة وكانت علاقتي به سطحية .. كان يسكن مع الصديق (م.غ) الذي كنت اتردد عليه .. وخرج الجميع من كلية الزراعة .. الدفعة المنكودة .. دفعة يحيى حسين .. وفرقت الأيام بينهم وذهب كل في حال سبيله .. وقابلته انا و (م.غ) في الطريق صدفة .. عندما كنا نسير في حي الزيتونة ذات مساء ... وكان لقاء واشواق وسلام ... وعرفنا انه يعمل في محافظة (سوهاج) في مديرية الزراعة .. ولحظة التعس انه كتب عنوانه على قصاصة صغيرة من الورق .. وسلمه للصديق الآخر ..

ومرت الأيام ولم يلتقيا بعد ذلك .. وجيء بصاحبنا (م.ن.ز) مكبلا بالحديد من سوهاج وهو يضرب اخماسا بأسداس .. وفي أبي زعبل سئل عن التنظيم سؤال الملكين .. وكان عذابه قاسيا شديدا مريعا ... وهو لا يدري شيئا .. ولا زلت اذكر عندما رايته وهو يزحف عاريا والحديد في يده وهو يكاد يجن من شدة الألم ...

واضطر في النهاية أن يعترف بعضويته للتنظيم السري .. وحاول أن يجعل لاعترافاته وزنا أو قيمة فلم يفلح .... فهو لم يكن يعرف شيئا عن التنظيم ولم تكن ثقافته لتسمح له بالتصور المعقول في مثل هذه الأمور ...

أصيب هذا الشخص بانهيار عصبي .. لازمه سنوات الاعتقال ثم افرج عنه محطما كئيبا بعد ثلاث سنوات .

الفصل الثامن

الذهاب إلى السجن الحربي

قضيت ليلة ١٣ سبتمبر (ايلول) (١٩٦٥) ساهرا معلقا على الحديد في (المحمصة) وعندما أشرق الصبح سحبت معصوب العينين الى (الفيلا) المجاورة للمعتقل والتي كان يجري فيها التحقيق .. وكان يوما مرهقا حارا[1] ضربت فيه ضربا فاق ما مر بي من أيام الجلد والتعذيب..

ووجدت الرائد (ف.ع) يعتصرني عصرا ليحصل على معلومات وهمية جديدة ... وكنت أؤكد في كل دقيقة انه لا يوجد عندي غير ما سبق أن قلته له من قبل .. لست عضوا في التنظيم واسألوا أصحاب التنظيم وعلاقتي ببعض أفراده كانت علاقة سطحية ولم يفكروا في ضمي اليهم في يوم من الايام اسألوهم ....

– طيب .. وعلاقتك بحزب التحرير الاسلامي ؟

ــ دي مصيبة ايه دي !!! لا علاقة لي به ..

ــ والكتب التي ضبطت في منزلك من منشورات الحزب ؟

كانت تباع في مكتبات القاهرة .. وارسلوا واحدا من حضرات المخبرين يأتيكم منها بالمئات ....

ــ وما سر اهتمامك بهذه الكتب ؟

ــ الثقافة ... المعرفة ... لا بد للانسان أن يكون داريا بما يدور حوله من أحداث ....

ــ وصلنا الى بيت القصيد .. لا بد انك تعرف شيئا ن تنظيم الاخوان ..

ــ لا حول ولا قوة الا بالله !! لماذا ؟

ــ انت تقول انه لا بد للانسان أن يكون واعيا لما حوله .. واهتماماتك اسلامية وتنظيم الاخوان يقع تحت هذا النطاق ...

ــ يا افندم .. هذا التنظيم الذي تتكلم عنه سري أم علني ؟

ــ سري .. يا ابن الكلب ..

ــ فكيف يتسنى لي معرفته اذن ؟

وفي ثورة جامحة يقول الرائد :

ــ يا ابن الكلب ... ما كلهم قالوا انك في اللجنة الخماسية ...

ــ يا نهار أسود .. اللجنة الخماسية مرة واحدة ؟

هذا كلام عير صحيح وغير منطقي .. اسألوا اللجنة الخماسية ....

ـ واذا سألناها وظهر أن هذه هي الحقيقة ؟

ـ في هذه الحالة يحل لكم الضرب بالرصاص ...

ـ في هذه الحالة سوف تضرب بالأحذية حتى تموت ....

هكذا في حوار متكرر .. نفس المضمون .. وربما نفس الالفاظ ....

وعند العصر ادخلت ثانية على الرائد (ف.ع) وبلا مقدمات سالني :

ـ هل تعرف شعبان بتاع الخانكة ؟

ـ وما حكاية شعبان هذا ؟

ـ يا ابن الكلب لما اسألك تجاوب . « كام صفعة وكام كرباج على اكتافي »

ـ حاضر يا افندم ...

ـ هيه .. تعرف شعبان بتاع الخانكة ؟

ـ كلا .. لا اعرف واحدا بهذه الصفة .. وليس من معارفي من يدعى شعبان .. ولم يكن لي في أي يوم من الايام معرفة بشخص اسمه شعبان .. وعلى استعداد لكتابة اقرار بهذا ..

ـ فكر جيدا ..

ـ يا افندم انا فاكر .. وعلى ثقة من انني كذلك .. لا اعرف شخصا اسمه شعبان سواء كان من الخانكة أو من اي بلد آخر ..

ـ انت مصيبتك ثقيلة ..

ـ وهل هناك مصائب أثقل من هذا ؟

ـ ستعرف الآن اذا كان هناك ما هو أثقل من هـذا ام لا ..

ـ والله العظيم ما اعرف أحدا اسمه شعبان ..

ـ دعك من هذا .. جهِّز نفسك ... سوف تذهب الليلة الى الحربي .. ولو ان شخصا أطلق علي الرصاص في هذه اللحظة لما شعرت .. تجمع الخوف والهلع في قلبي مرة واحدة ... فقد كنا في تلك الايام نسمع أساطير عن السجن الحربي .. وبالرغم من كل ما مر بنا من عذاب فقد كنا نعلم أن عذاب السجن الحربي لا يفوقه عذاب غير عذاب الآخرة .. ولم أفكر لحظة أنه يمكنني الذهاب الى هناك ...

واستعدت رباطة جاشي عندما ظننت ان هذا الكلام لن يعدو ارهابا وتخويفا من الرائد .. أما الذهاب الى هناك فذاك شيء بعيد جدا ... اين نحن من السجن الحربي ؟

واطمأنت نفسي قليلا ..

واقترب الملازم عصام الشوكي ورفع العصابة عن عيني وطلب مني أن اتبعه الى المعتقل حتى آتي بحاجياتي واسلم ملابس السجن .. فقلت لنفسي !! هذا امعان منه في الارهاب والتخويف ... فلأتظاهر بالخوف لأرضي غروره ....

وسلكنا الطريق الى المعتقل .. وكانت اول مرة اسير فيها مفتوح العينين .. ورأيت أكوام الزلط التي كنت

اتعثر بها .. والاشواك التي طالما أدمت قدمي في ذهابي ورواحي.. ورايت الحرس فوق الاسوار شاكي السلاح... وينظرون شزرا في تجهم كأنهم الشياطين ..

وعند باب المعتقل رايت عربة كبيرة من النوع الذي يستخدم في نقل المعتقلين .. مثل الاخرى التي جئنا فيها من معتقل القلعة .. ولعب الفأر في عبي .. وربما يكون الأمر جدا ..

وتكلم الملازم عصام الشوكي وكأن صوته يأتي من مكان سحيق ..

ـ انت ستذهب الى السجن الحربي الآن ... لماذا ؟

ـ لا ادري لماذا يطلبونك .. ولكن لو ظهرت لديك اقوال اخرى غير التي قلتها فمعناها اننا لا نعرف عملنا .. وهذا وحده سيكون كافيا لقتلك عندما تعود الينا مرة اخرى ...

وهبطت عليّ شياطين الخوف من كل مكان .. المسألة جد اذن .. ساعدني يا رب .. ودخلت مخطوف اللون شارد الذهن .. وبجوار السلم كان يجلس اثنان وعشرون ممن سيذهبون معي الى الحربي ... ونظرة واحدة ناحيتهم تبين الحالة السيئة من الخوف الذي يركبهم .. كانوا يجلسون القرفصاء .. صفر الوجوه .. ناكسي رؤوسهم.. واغلبهم كان يرتعد رغم شدة الحرارة..

وسلمني الملازم عصام الى الرائد قائد الرحلة الى الجحيم .. وسألني :

ـ اين ملابسك التي اعتقلت بها ؟

ـ فوق ...... في العنبر ..

ـ اسرع يا ابن الكلب وإت بها على الفور ...

ودخلت العنبر فوجدته قد اكتظ على آخره بالمعتقلين .. وأصبح شبيها بالاتوبيس المزدحم .. ووجدت المعتقلين القدامى الذين كانوا معي حين دخلنا فيه لأول مرة ينتظرونني .. وتقدم احدهم وواساني ..

ـ شد حيلك .. احنا عرفنا أنك ذاهب الى السجن الحربي ...

الموت حق .. والساعة حق .. والله يبعث من في القبور ... وصرت اتمتم بدعائي وأحاول أن استجمع نفسي فلا أستطيع .. وارتديت بذلتي التي اعتقلت بها ولففت ملابس المعتقل ووضعت في اللفة القروانة والطبق الصغير والملعقة الالمنيوم الجديدة .. وكنت أول من استعملها بعد أن صنعت ..

وودعني كل من في العنبر بالدعاء وداعهم لشخص يساق الى الموت ....

هبطت الى الدور الاول حتى أسلم هذه العهدة الحقيرة واستلم أماناتي ... وكانت عبارة عن ثلاثين قرشا .. كانت كل ما معي لحظة اعتقلت .. وصرت بعد ذلك اتنقل بها من معتقل الى معتقل ... وقد أحسست ساعتها أن المعتقل عزيز على نفسي لأن المكان الذي انتزع اليه شبيه بالجحيم .. لحظتها أدركت نسبية الأشياء ...

والأمر الذي ملأني فزعا أنني رأيت الجلادين وهم ينظرون ناحيتنا ـ نحن الذاهبين الى الحربي ـ نظرة مليئة بالشفقة والرثاء العميق .. معنى هذا انهم يعلمون أن الذهاب الى هناك يعني عذابا أكثر مما يدور في هذه الطاحونة .. ومعناه ايضا ان ما يجري في السجن الحربي قد اثار الشفقة في هذه القلوب المتحجرة الشديدة القسوة !!

اين النجاة يا رب ؟ لا بد أن يبلغ الكتاب أجله ..

وفي قيد من حديد وضعوا كل اثنين منا .. ثم ربطوا هذه القيود في جنزير طويل وهكذا اصبحنا جميعا كتلة واحدة .... ربط الألم بينها ... ولم ينسوا أن يعصبوا اعيننا .... وتم هذا كله في جو من الارهاب الشديد الذي تمثل في الركل والصفع والسب القبيح ..... ثم القوا علينا تحذيرا اخيرا .... من يفتح فاه بكلمة في الطريق سيكون مصيره الضرب بالرصاص ... دون رحمة أو شفقة ...

ولم يكن لهذا التحذير قيمة فلم تكن عند واحد منا رغبة أو قدرة على النطق بكلمة ونحن في طريقنا الى السجن الحربي حيث الموت الذي لا لون له .. وما كان الموت بالشيء الذي يخشاه واحد فينا .. بله العذاب ..

وكان معنا في هذه الشاحنة اثنان من المخبرين . كنا نحن نرتعد من الخوف .. وكانا هما يسخران منا ويسبانتا ..

قال أحدهما :

ـ يكون حظكم من السماء لو نزلت هذه الشاحنة في الترعة ومتم عن آخركم .

وكانت السيارة تسير في طريق الترعة الاسماعيلية وامامها عربات شرطة .. وخلفها كذلك .. هكذا فهمنا من كلام المخبرين .. ثم قال الثاني :

ـ انتم لا تدرون ما ينتظركم في الجحيم الذي تذهبون اليه ..

ووجدت شفتي تهمسان الى الله سبحانه وتعالى بدعاء حار أن يستجيب لهذا المخبر وتسقط الشاحنة بنا في الترعة ونغرق عن بكرة أبينا .. وتمنيت لو كانوا أتموا شنقي في يوم مضى ... وقدر الله أن نعيش التجربة .. ولم تسقط العربة في الترعة ..

وعلمت فيما بعد أن كل واحد من الذين معي قد داعبته نفس الأمنية وتوجه الى الله عز وجل بالدعاء ....

وبعد حوالي ساعتين من السير بالشاحنة على ضفاف الترعة الاسماعيلية التي لم نرها في رحلتنا ... وملامسة الضجيج في شوارع القاهرة .. الهادرة بالاصوات المتباينة .. وهي لا تعلم عن منكوبي الرحلة البائسة .. ثم التسكع قليلا في بعض أقسام الشرطة .. وفي مبنى المباحث العامة ..

وفجاة وجدنا الضجة تخفت والضوضاء تتضاءل .. ثم لا يقطع علينا خوفنا غير صوت محرك الشاحنة ... عند ذلك علمت اننا قد دخلنا في منطقة (مدينة نصر) حيث يقبع السجن الحربي الرهيب بجدرانه الحجرية الباهتة وبوابته السوداء ... حيث يتحدى الحرية والشعب في سلاطة ووقاحة ..

وكان عقلي يمور ويثور .. وروحي تتخللها الافكار على مدى قسوة الانسان لأخيه الانسان في هذا المكان الرهيب الذي يسمونه بالسجن الحربي... ولماذا يطلبونني فيه ؟ وماذا يمكن ان أجد هناك ..؟

ووقفت الشاحنة .. وفي لحظة تجمد الزمن في ذهني من الخوف .. ثم استيقظت بعد فترة غير محدودة في شعوري على صوت الجنزير الحديدي والقيد في يدي يشدني الى خارج الشاحنة ... كنا جميعا مقيدين في سلسلة واحدة .. سلسلة باردة صلبة قاسية تبعث البرودة في الاعماق رغم سخونة الهواء الجاف في سماء مدينة نصر ..

ونزلنا من السيارة على عجل ... وعيناي معصوبتان ووصل الى أذني صوت ضئيل سرعان ما علا وارتفع حتى صار مجسما مخيفا يملأ أذني وكياني كله ...

كان هذا الصوت هو صوت السياط وهي تمزق الهواء والاجساد .. وتعوي بين هذا كله عواء مخيفا .. كأن ذئاب الارض قد اجتمعت جميعا في صعيد واحد .. ثم صراخ الانسان المتعالي في الفضاء العريض .. صراخا لا تستطيع تمييزه أهو لرجل أم لامرأة أم لطفل ؟ وكان الثلاثة يجلدون في السجن الحربي ...

وخيل الي وقتها ان الدنيا قد أصابها صمم .. وأن الحضارة قد أصابها عفونة قضت على روحها وقتلتها وأدرجتها مدارج الفناء ...

لقد وصلنا الى السجن الحربي ..

كنـا وقوفا أمام البوابة ونحن نرسف في القيــود والسلاسل وعيوننا مغمضة والصراخ يتعالى .. ثم الجند يسوقوننا بعد ذلك بالسياط سوقا .. منظر غريب فريد.. لم أكن اتصور وجوده الا في كتب التاريخ ... حينما تصف عصرا موغلا في القدم .. ربما يكون حينما كان (كراسوس) في فجر الحضارات يقضي على ثورة العبيد ويقتل زعيمهم (سبارتاكوس) الذي يهدد نظام روما العتيد ..

ربما يكون في المناجم الليبية عندما كان الرومــان يقتلون العبيد من العمل الشاق المرهق الذي يستمر طوال النهار وشطرا من الليل ..

ربما حين كان رمسيس الظافر يسوق الأسرى مــن بلاد الحثيين وبلاد بونت ..

وربما في مزارع القطن والسكر في العالم الجديد في القرنين السادس عشر والسابع عشر ..

ربما ... وربما.. في أي زمن من أزمان التاريخ... الا ان يكون هذا في القرن العشرين .... وفي مصر !!!!!

كان ذلك بعيدا عن ذهني .. أهذا يحدث في قلـب الحضارة في ناحية الزمن حيث تصطرع الثقافات وكلهـا يمجد الانسان وحريته تجاه الحياة ؟..

كانت الصورة في خاطري وقتها .. عصابة من قطاع الطرق تخطف الناس من منازلهم وتذهب بهم الى مكـان مظـلم مجهول . ولا أظن أن رجـال الجستابو في عهــد

(اللعين الراحل) آدولف هتلر كانوا على قدرة من الاذلال والتحطيم مثل ما اوتي هؤلاء الناس ..

اي ريح عفنة هبت على مصر في صيف ذلك العام...؟

كان الدخول الى السجن الحربي بمثابة الدخول الى غابة مظلمة ممتلئة بالحيوانات الضارية المفترسة .. حتى الحيوانات .. لا اظن ان قلبها الذي خلقه الله سبحانه وتعالى ، قد خلا من اختلاجة رحمة او لمسة شفقة .. اما هؤلاء الناس الذين عذبوني في هذا السجن لمدة عام كامل فلم ينبعث من جوفهم غير ريح نتنة ساخنة تفسد كل شيء وتقضي على كل ما هو طيب وجميل في نفس الانسان ... ومن بين الصراخ انطلق صوت رفيع حاد :

ــ ما هــذا ؟

ــ هؤلاء معتقلون جدد .. من معتقل أبي زعبل يـا سعادة البك ....

ــ ولماذا تضعون هذه العصابات على اعينهم ؟

ــ هذا نظام المباحث العامة يا سعادة البك ..

وضحك سعادة البك ضحكة ماجنة سعيدة وقال :

ــ المباحث العامة تغمض عيون الناس خوفا من انتقام اصحابها في مستقبل الايام اما نحن فنقتل ونعذب .. ثم نقتل ونعذب .. ولا نخشى احدا .. ومن يأتي لهذا المكان فعليه أن يكون عبدا لعبد الناصر الى الأبد .. (وهنا تذكرت السحرة وفرعون وملك مصر) أو يموت .. واذا نجا من الموت لسبب يخرج عن ارادتنا فسيظل طول عمره

يتجنب هذه القلعة الشماء والطرق المؤدية اليهـا ....
ارفعـــوا هذه العصابات القذرة مـــن فوق عيون هـذه الجرذان ....

وصفونا صفا واحدا ووجوهنا الى حائط السور من الداخــل .. ورفعوا القيود الحديدية وأمرونا فرفعنـا العصابات من فوق اعيننا وكان الصراخ يرتفع ويصبـح اللحن الجنائزي المميز للدخول في هذه البئر الذي انفتح مـن جحيم الارض دون حساب أو تقدير من كل هـؤلاء المساكين الذين يواجهون مصيرا مجهولا بين هذه الجدران الصماء القاسية ......

كان عنـدي بقية من تفكير ساعة دخلنا السجـن الحربي ... وقادتني هذه البقية الى ان أودع كل أمل وكل أمنية وكل رغبة جميلة أو مريرة .. وان أقدر أنني عـلى باب من أبواب الآخرة .. وأن اترك نفسي بين يدي اللـه الحانيـة تفعل بها ما تشاء فقد يكون الخير .. خيـر الآخرة ... فيما هو كائن .. ولم يكن أمامي أن أفعل شيئا سوى هذا ... وتمتمت بيتين من الشعر لا أدري مـن قالهما :

لا تدبر لك أمرا	فأولـو التدبير هلكـى
سلّم الأمر تجدنا	نحـن أولـى بك منكـا

واعتبرت نفسـي ضيفا على الله في هذا المكان الذي يتحـدى كل من فيه اللـه سبحانه وتعالـى بعظمتـه وجبروته ....

ماذا يمكن ان أكتب لكم في هذا المقام ؟ ان نفسي ترتعد كلما أتذكر هذه الايام المريرة ... واجدها كلما عاودت النظر تنضح رعبا وألما وسخطا .....، لقد قدّر لمن يذهب الى السجن الحربي أن يرى أسوأ ما يمكن في الحياة .. وليس في ظني أن مصائب الدنيا كلها تساوي قضاء ليلة واحدة في زنازين السجن الحربي الباردة الشمطاء .. ومهما كتبت ومهما صورت فلن أفي هذا المكان حقه من الوصف والتحليل .

كان من تقاليد السجن الحربي العتيقة شيء يسمونه « الإستقبال » ... وكان هذا التقليد يسلمه الزبانية الى اخلافهم ... وصار مع الايام شيئا مميزا .. وهو عبارة عن استلام الشخص المنكوب وضربه ضربا شديدا قد يودي بحياته لكي يتعود الذل والطاعة .. ولا يستطيع أن يفتح عينيه في وجه جلاديه ابدا ... وكان علينا أن نمر بهذا الاستقبال ... وكنا نسمع عن هوله الاساطير أيام كنا في معتقل ابي زعبل .. هل أستطيع أن أصفه لكم ؟ ... لست أدري ولكنني سأحاول ....

من بين الجو الذي وصفته قبل ذلك .. الصراخ والعويل والانّات المتحشرجة والسياط العاوية اللاعقة من دم البشر جيء بالكلاب المفترسة يقودها الجند في سلاسل مربوطة باعناقها .. وصارت تعوي وتداعب اقدامنا مداعبة خفيفة ونحن نلتصق بالجدار تكاد نتجمد من الرعب والخوف .. ثم أتوا بعدد من الجند اكثر من خمسين ... وكان على كل واحد منهم أن يفعل شيئا .. وكان هؤلاء الجند مدربين مثل الكلاب تماما .. وقاموا بأعمال شبيهة بأعمالها في مرات سابقة كما تبين لنا بعد ... وكان على

كل جندي ان يمر على هذا الصف المنكود ويصفع كل واحد صفعة على قفاه ... صفعة شبيهة بالقنبلة لبشاعتها وقوتها ... وكان يقف بجانبي شيخ عجوز محطم لم يحتمل الصفعة فسرعان ما سقط على الارض .. ولا أدري هل سقط من هول الصفعة أم من شدة الخوف .. المهم انه تهاوى الى الارض .. ووجدت نفسي انحني اليه وقلبي يتمزق من الصفعة والرحمة ... والرجل يرسل أنينا مخيفا .. ويتوسل ويستعطف ثم سكت الى الابد .. لا شك انه قد مات من الخوف ...

اما أنا فقد اخرجوني من الصف وضربوني جميعا حتى فقدت الرشد .... ولما أفقت وجدت نفسي ضمن كومة من لحم زملائي .. فقد ضربنا جميعا حتى تكومنا من شدة الضرب ... وكانت الكلاب تلغ في الدماء بشراهة ووحشية وكم نالت الكلاب من اللحم البشري في هذه الليلة ......

ثم صرخوا فينا صرخة عظيمة .. أن ننتبه وقوفا ... ورغم الآلام العظيمة لم يكن أمامنا غير ان نمتثل .. ووقفنا وكل ذرة في اجسادنا تنضح بالشكوى والألم والضعف... وكان امامنا ان ننطلق الى حيث نبيت ونقضي أول ليلة في جحيم الارض ... وصدر الامر لنا بأن ننطلق الى السجن الكبير ....

السجن الحربي عبارة عن سور بداخله بنايات ضخمة يطلق عليها .. رقم واحد وهو السجن الكبير ... ويتسع لألف شخص حشرا ... وبه ثلاثمائة زنزانة تقريبا .. مكونة من أدوار ثلاثة .. وهو المكان الذي قضيت فيه مدة الاعتقال .. ثم رقم اثنين .. وثلاثة .... واربعة ...

وخمسة ... والمستشفى الذي لا يذهب اليه الا الذين اوشكوا على الموت ... أو الذين ماتوا فعلا .... ثم أماكن الادارة .. وأماكن التعذيب .... ويوجد في داخل أسوار السجن الحربي (فيلا) أنيقة حيث يقيم جلاد السجن الشهير حمزة البسيوني .. الذي سيظل اسمه لصيقا بتاريخ الارهاب والقتل والتعذيب والتشريد ...

وبجانب هذه البنايات الضخمة يتوارى مسجد صغير خجلا حزينا مما يجري تحت نظره وبصره .. وبين البوابة الرئيسية التي يتم عندها الاستقبال الذي استمر معنا أكثر من ثلاث ساعات وبين السجن الكبير حيث سنقيم حوالي مائتين وخمسين مترا ..

وصدر الأمر ان نقطع هذه الطريق الملتوية المجهولة لنا الى هناك دون دليل .. تسوقنا سياط الجند .... وعلى كل واحد أن يصفع أخاه على قفاه اذا لحق به والويل لمن لا يفعل .. وصلنا الى ساحة السجن الكبير منهوكين محطمين خائفين .. وكانت دهشتنا شديدة وخوفنا أشد حين علمنا أن علينا استقبالا آخر يجب أن نمر به .. استقبال محلى في ساحة السجن الكبير ....

كانت الساحة مربعة واسعة ويبلغ عرضها مائة وخمسين مترا .. وفي ركن من اركان هذه الساحة ــ التي قتل فيها الكثير من أبناء مصر المسلمين ــ بئر عن يمين الداخل من باب السجن الكبير ... وبجوار هذه البئر المتلئة بالماء منضدة خشبية مستطيلة يأكل عليها حرس السجن عادة ...

وعندما دخلنا الساحة وجعلنا وجوهنا الى الحائط امتثالا للأوامر هب الحراس سراعا وكانوا يأكلون .. وقد علمنا بعد ذلك ان هؤلاء الجند لا يفضلون شيئا آخر على الطعام الكثير المنهوب سوى التعذيب ... ولهذا تركوا الطعام ليحصلوا على متعة أكبر .. متعة ركلنا وضربنا وجلدنا ..

انتهى استقبال السجن الكبير بعد ساعتين .. وكان شبيها بالآخر عند البوابة الرئيسة من حيث الطريقة .. ولكنه يفوقه في الكم ضراوة ووحشية... وبعد أن جردونا من نقودنا والساعات التي كانت في أيدينا وأقلام الحبر وبعض الملابس التي كانت تروق لهم ، أودعونا مخزن رقم (٦) جياعا مذعورين نخاف أن نتخطف من الارض ......

الفصل التاسع

المخزن رقم ٦ الرهيب

هو حجرة في الدور الارضي على يمين الداخل من بوابة السجن الحديدية الكبيرة .. تقع أمام بئر الماء .. لها نافذة تطل على خارج السجن الكبير حيث فناء السجن الحربي .. ويقع المستشفى أمامها مباشرة .. وتبدو مكاتب التحقيق بعيدة في نهاية الطريق المؤدي اليها ..

والحجرة لا تتسع لأكثر من عشرة .... فهي ضيقة بالنسبة للعدد الكبير الذي وضع فيها ... فقد أشرقت علينا شمس النهار وعددنا خمسة وأربعون .. بينما مساحة الحجرة التي يطلقون عليها مخزن رقم (٦) حوالي مترين في ثلاثة أمتار .. وكانت تفوح منها رائحة البول والبراز والصديد .. وتنطلق منها الانّات الخافتة المكتومة ... فالتعليمات تقضي بعدم صدور أي صوت .. والا فسوف تدخل الكلاب الجائعة التي تثيرها رائحة

الجروح .. وهنا ينبغي التنويه .. لقد دخلنا المخـــزن وليس فينا واحد الا وبه بعض الجراح .. والدم يسيـــل دون توقف ... أدخلونا المخزن في فزع وخوف فتساقطنا في ظلامه كل منا فوق الآخر .. وجمد كل منا بالوضـع الذي قذف عليه حتى مطلع النهار .. فقــد قال الحراس انهم لا يريدون اصواتا أو حركة فالموت جزاء من يفعل .. وكنا نعرف انهم لا يكذبون في مثل هذه التهديدات ..

شذ عن هذا واحد منا كان يحبس بوله .. وكان أقلنا في الذهاب الى دوره المياه قد انتهى عهــده بها منذ ســت وثلاثين ساعة .. فبعد فترة قصيرة فتح الباب وظهر من فرجته شبح لجندي عملاق كريه المنظر قد امسك سوطا في يده وصرخ فينا :

ـ هل هناك من يريد الذهاب الى دورة المياه ؟

ـ وسكتنا جميعا ..

وفتح الجندي فمه بسباب قذر بذيء .. ثم صرخ ثانية مكررا نفس السؤال .. وكان الظلام شديدا ... فكان من الصعب أن نرى الانفعالات المختلفة على الوجوه .. ولكن الخوف هو القاسم المشترك بينها بطبيعة الحال ...

وتشجـع صاحبنا .. وطلب الذهاب الـــى دورة المياه .. وكان لواء في الجيش .. فأخرجه الجندي الكريه المنظر من المخزن بعد أن مر ، هذا الزميل فوق جثث زملائه المكومة دون ترتيب ...

وأمام باب المخزن .. حيث الانوار الخافتة المنبعثـة من المصابيح الموجودة في المكان ، ضرب هذا الضابط الكبير

ضربا شديدا موجعا ... ثم جاءت الكلاب ونهشت من لحمه أمامنا وبعد هذا كله القوه في البئر ... وعندما اوشك على الموت أخرجوه وأدخلوه الينا يقطر دما وماء ... وتركوه يرتجف حتى جفت ملابسه وحدها ...

وكانت هذه (العلقة) مدعاة لاستغنائه عن الذهاب الى دورة المياه ... فقد تبرز الرجل وبال على نفسه .. وصارت رائحته تزكم الانوف القريبة منه .. وكان منها انفي .. وبقي كل في مكانه يجتر أفكاره وآلامه في صمت رهيب ولم تكن تسمع همسة أو تحس بنأمة .. وكل ربع ساعة تقريبا يفتح الباب ويقذف الينا بمعتقل جديد ... يقذف كما يقذف جوال مليء بالبطاطس مثلا ... دون ما اهتمام ... وفي العادة يكون هذا الشخص عائدا من التحقيق أو من منزله .

وكان الظلام شديدا فلم نستطع تمييز وجه أحد .. ولكن كانت هناك أيد تمتد في الظلام لتكتم الأنات الخافتة الصادرة من أفواه الجرحى خوفا من بطش الجنود .. وكان جوعنا شديدا وعطشنا أشد .. ولكن .. ما الجوع والعطش بجانب هذا الخوف العارم الذي يقتلع القلوب من الصدور .. وبعد مدة سمعت أحدهم يهمس :

ـ يا جماعة ..

وانبرى اليه صوت الضابط الكبير .. الكريه الرائحة من ملابسه المتسخة بالبول والبراز :

ـ ماذا تريد ؟ الا يكفيك ما نحن فيه ؟

ولكن الصوت الهامس قال بالحاح :

ـ لقد اكتشفت شيئا هاما .....

ـ وما هـــو ؟

ـ بجانب الباب وعاءين من المطاط ...

ـ ماذا تعني ؟

ـ اظن أن احدهما للبول والآخر للشراب .. ولكن لا ادري على وجه التحديد ايهما للبول وأيهما للشرب ...

وقام بعضنا بخفة وتلطف شديدين .. يتبول الواحد في اناء ويشرب من الآخر ..

وفي هذه الليلة المباركة شربت البول لأول مرة فـــي حياتي .. ولم يكن طعمه مريحا على أية حال .. وليـــس هناك داع لأن أقول ان احدا منا لم يذق طعم النوم في هذه الليلة .. وربما لليال اخرى اتت في أعقابها .. وكانـــت الآلام التي واجهناها وعايشناها تشغلنا قليلا عن التفكيـــر في التحقيق الذي قد يدعى اليه أحدنا في أية لحظة مـــن اللحظات ....

وقد قدّر لي أن أعيش في هذا الانتظار أكثر مـــن اربعين يوما حتى أرسلت بعدها الى التحقيق ... وقـــد رأيت كم هو مختلف عن مثيله في أبي زعبل .. انه القتل تحت السياط والاسياخ الحمراء .. وخلع الاظافر ونهش الكـلاب وأسلاك الكهرباء .. أو تحت وطأة ركل الاحـذية الثقيل ...

وفي رحلتنا عبر هذه الليلة الرهيبة فتح الباب وقذف الينا باثنين ثم نودي على أحد الاسماء .. وقام صاحـــب

الاسم يرتعد خوفا وفرقة ونحن نستمع الى صرير أسنانه وصرت أركز بصري في الظلام واستطعت أن أتبينه وهو يمر من فرجة الباب خلال الضوء الشاحب الآتي من المصابيح المنتشرة عبر الساحة .. كان الضابط المسكين الذي لم يسترح من علقة المساء .. لقد طلبوه للتحقيق .. واني اعتقد بعد مرور ذلك الوقت الطويل ان كل من بالمخزن قد شاركني دعائي الحار حتى يخفف الله من آلامه وهو ذاهب الى مصيره المجهول ..

ومع الخيوط الاولى للنهار حيث استطاع كل واحد منا أن يتبين وجه زميله فتح الباب وظهر اربعة من الجند الاشداء يحملون الضابط الكبير وقد تمزق جسده من السياط .. وأكلت الكلاب من جسمه حتى شبعت .. وفي لمح البصر سمعنا صوت ارتطامها فوقنا ولم يجرؤ واحد منا على لمسه أو تخفيف آلامه التي كانت ممثلة في أنّاته الخافتة المعذبة وكانت ملابسه غارقة بالدماء ... وكان من الصعب أن نعرف مصدر النزيف ، كان جسده جرحا كبيرا غائرا ينزف دما من كل مكان .. ومع اشراقة الشمس فتح الضابط عينيه عن آخرهما ثم ارسل صرخة عظيمة خيّل اليّ معها ان جنبات السجن قد ارتجت .... ثم سكن الى الأبد .....

وكانت خسائر هذه الليلة .. اثنين من القتلى وأكثر من اربعين جريحا كما علمنا فيما بعد ..

جاء الجند وحملوا جثة الضابط المسكين في بطانية من الصوف الى حيث لا يعلم احد ..

وطلع النهار واستوت الشمس ودبت الحركة في الآلة الرهيبة ..

لا اكتمكم ان احدا لم يحزن على واحد من الذين ماتوا في الليل .. لم يكن في قلب احدنا مكان للحزن فقد غطى الألم والخوف كل جوانحنا .. وكنا نغبط الذين ينجون من العذاب بالشهادة والذهاب الى الله ...

فتح باب المخزن قليلا .. واستطعت أن اتبين فناء السجن من خلال عيني اللتين اضناهما السهر والألم وابخرة البول في تلك الليلة الحارة ...

ورأيت منظرا لا انساه ..

مجموعة من الجند ينهالون على شيخ بالسياط ضربا .. وهو يصرخ ويستغيث ولا تجيبه سوى فرقعة السياط الملتهبة على جسده الواهي الضعيف .. وسكت الشيخ اخيرا بعد أن بح صوته من الاستعطاف وطلب النجدة .. وظلت يداه مرفوعتين الى السماء الصافية .. ولا أدري أكانتا تحتجان أم تتوسلان ... وعلى الجدار المواجه كانت صورتان لجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر مرسومتين بالزيت .. ولم تكونا من رسم فنان .. بل كانا رسما شبيها برسم الاطفال في السنة الاولى من مدرسة ابتدائية ... وفوقهما حكمة مكتوبة بخط واضح ...

« كنت اخادع الجياع كي اعيش كما اريد »

ولا ادري من كتبها .. اكان منكوبا مثلي .. أم احد الجلادين ..

كنت أشعر انني في كابوس مزعج ولا احتمل التفكير فيما يدور حولي .. لم يكن هناك ثمة سبب يبرر كل تلك الآلام .. ولم أتصور الشكل الذي ينتهي عليه هذا الحلم المزعج .. وكنت احسب الف حساب لكل لحظة قادمة .. كانت الطاحونة التي تهرسني كل لحظة اقوى من طاقتي كانسان محدود الطاقات .. كان شيئا مرا كالعلقم او اشد مرارة ... ولم يكن امامي في مواجهة هذه الاحداث غير الاستسلام الكامل ..

ـ ورويدا رويدا أصبحت أبعد التذمر عن قلبي واتذكر المؤمنين الصادقين الذين بنوا الاسلام على أكتافهم وصدقوا ما عاهدوا الله عليه .. وادعو من قلبى أن أكون منهم وأن احمل هذه الوطأة القاسية دون اعتراض او احتجاج ...

دخل جندي كريه الوجه واليد واللسان عرفت ان اسمه (الروبي) وانهال علينا هذا (الروبي) بسيل من الشتائم البذيئة وكنا نفهم بعضها ونعجز عن فهم بعضها الآخر .. ولكننا على ثقة من انه يسبنا سبا قبيحا ..

كان يحمل فى يده وعاء قذرا .. وبأصابعه المتسخة صار يعطي كل واحد منا قرصا صغيرا من الطعمية .. وتمخط اثناء ذلك مرتين .. ومسح يديه في بدلته الرسمية ... وعاود التوزيع .. وأذكر انني لم اتقزز ... كان الامر كما قلت لكم أكبر من التقزز ومن كل شيء .. ثم ألقى فوق رؤوسنا حفنة من الأرغفة ... وانصرف ....

واحصينا الخبز فوجدناه كسرات مجموعها ما يوازي خمسة أرغفة وكان عددنا قد قارب الخمسين .. فكان

لكل عشرة رغيف واحد من الخبز .. بعد جوع طويل ..
ورغم هذا فقد رفض الكثير منا تناول هذا الطعام .. ولم يكن الرفض احتجاجا أو تكبرا .. بل الخوف يجعلـــنا لا نحس بضراوة الجوع ..

وبعد قليل دخل الجندي (الروبي) نفسه واعاد على مسامعنا ما سبق أن قاله .. وكان ممسكا بيده اليمنـى سيخا طويلا من الحديد .. وفي يده اليسرى .. كوبا من الالمنيوم القديم قد امتلأ حتى حافته بالشاي ..

وبسيخه الطويل شج رؤوس بعض المساكين وانسكب قدر كبير من الشاي الموجود في الكوب أثناء ضربه لنا .. ثم أعلن لنا مفاجأته : .. كانت بقية الشاي الموجود فـــي الكوب هو ما تقرر صرفه للخمسين المجتمعين في مخزن (٦) الرهيب ..

وفي هذه المرة رفضنا أن نشرب الشاي احتقارا منا لكل شيء ... وبقي في مكانه حتى الظهر ...

واكتشف الروبي أننا لم نشربه فضربنا جميعا علقــة ساخنة ...

بعد ذلك أتانا جندي آخر اشد بشاعة من صاحبه .. لقد تقرر أن نذهب الى دورة المياه لنقضي حاجتنا ونغتسل ونشـــرب بدل البول ماء زلالا من الصنابير .. ولم تتبــم الفرحة ..... ذهبنا الى دورة المياه المقامة بالدور الاول عدوا والسياط والكلاب تنوشنا من كل ناحية .. ظهورنا ووجوهنا ورؤوسنا ..٫. وأدخلوا كل واحد منا مكانا ...

وكان المكان قذرا جدا والبراز يملأ كل شبر فيه ... ولا توجد به نقطة واحدة من الماء ، ليس هذا فحسب ، بل فوجئت ـ عندما اغلقت الباب وهممت أن أفعل شيئا ـ بالجندي وقد فتح الباب في قسوة وانهال عليّ ضربا بالسوط .. وارتبكت .. ولم أفهم ماذا يريد هذا المخلوق بالضبط .. كان في نظري مجرد مخلوق من مخلوقات إلله ليس انسانا وما ينبغي أن يكون .. أسود الوجه .. غائر العينين تنبعث من فمه رائحة كريهة نتنة بفعل التعفن الذي أصاب اللثة والاسنان من زمن بعيد ... وكانت البقع الجلدية الباهتة البياض تتخلل وجهه الدميم .. وتذكرت دارون وحلقته المفقودة .. وكذلك مر بمخيلتي الكاتب النرويجي ابسن .

وانطلق من فمه الأهتم صوت كالزئير :

ـ اطلع بره يا ابن الكلب ...

ـ يا فندم ... لسه ...

ـ انت بترد عليّ يا جربوع يا حثالة .... يا .... يا ...

والسوط يفرقع في حمية وشدة وحماس ...

وعدت الى المخزن .. وما استفدت شيئا في هذه الرحلة المشؤومة الى دورة المياه غير العلقة الساخنة .. تلك التي تركت آثارها جروحا في وجهي وعلى كتفي وظهري ... ورأيت الباقين وهم يهرولون كالفئران المذعورة .. والجند وراءهم كالوحوش والسياط والكلاب تعوي في الفضاء الخانق عبر ساحة السجن الكبير ....

وجلست مكوما ساخطا بين عشرات الاجساد التي الهبتها حرارة السياط ... وعرفت أن أحدا لم يقض حاجته .. وظلت الوجوه صامتة قاتمة عليها غبرة غريبة ثم حرك أحدهم يده في عصبية وانخرط في بكاء مرير .. ونسي نفسه ونمتم بكلمات :

ـ هذا ظلم ... هذا ظلم ...

وقال له ناظر المدرسة الثانوية الاشيب الذي حنكته الايام :

ـ كلنا نعرف ان هذا ظلم .. فاضبط نفسك ولا تنطق بكلمة واحدة .. فنحن لا ندري من سيموت منا هذا النهار ...

وخيم صمت مطبق على المخزن لم يقطعه الا صوت السياط العاوية والصرخات المكتومة تأتينا من بعيد ..

وعاد كل واحد فينا يجتر أفكاره في شرود ..

وكان كل ما يشغل تفكيري تلك الكلمة التى قالها لي الضابط في معتقل القلعة .. شعبان بتاع الخانكة .. اين انت ؟ سيكون هلاكي على يديك يا شعبان ... يسألونني عنك وانا لا اعرفك .. وسأموت من أجل جهلي بك .. ولكن الموت تحت السياط شيء رهيب يا شعبان .. ربما يجلدونك في هذه اللحظة ..

ووجدت نفسي اسأل الموجودين في صوت ضعيف :

ـ يا جماعة .. هل فيكم من يعرف شخصا من الخانكة اسمه شعبان ؟

وبصوت هامس استجاب لي صوت متأفف النبرة :

ـ انا من الخانكة ولا اعرف فيها من يدعى شعبان غير رجل في الستين من عمره يعمل فرّاشا في الوحدة الصحية ..

واقتربت منه بالحاح :

ـ هل له علاقة بك ... ؟

ـ لا اظن .. انه رجل امي ولا يفهم شيئا من شؤون السياسة ..

ـ هل له علاقة بالاخوان ؟

ـ كــــلا ..

ـ ومن ادراك ؟

فاجابني في تأفف خوفا من حضور الجند :

ـ انا من الاخوان .. صدّقني .. ليس في المنطقة كلها شخص واحد في جماعة الاخوان يحمل هذا الاسم ...

وعدت اليه في اصرار وتوسل ..

ـ ارجوك ..

ـ ماذا تريد بالضبط ؟

ـ اعطني اية معلومات عن شعبان ..

ـ فرّاش الوحدة الصحية ؟

ـ نعـــم ..

ـ لمـــاذا ؟

ـ سوف يسألونني عنه ولا اعرف عنه شيئا عــلى الاطلاق ..

واجابني بتذمر وكانما أراد أن ينهي الحديث .. فكل منا له مشكلته المعقدة ...

ـ لقد قلت لك .. هذا رجل مسكين ولا يعلم شيئا عن العالم .. وربما لم يغادر الخانكة ابدا ولم يكن لـه اي نشاط سياسي .. وربما لا يعرف من يحكم مصر في هذه الايام .. هذا الشعبان الذي يسألونك عنه لا يمكن ان يكون من مدينة الخانكة .. فلا تشغل بالك وتشغلني معك ...

ـ ولكـــــن ...

فقاطعـــني :

ـ ارجوك أن تسكت .. في راسي ما يشغلنـي .. وليس عندي كلام عن شعبان أكثر مما قلته لك ...

وعاد الى نظرته الشاردة والى ما في جوفه من خوف وهلـع وانشغال .. وفشلت كل محاولاتي معه لأجعلـه يتحدث عن شعبان ... ومن بين النظرات التائهة الشاردة صرت أتفحص الوجوه واتأملها بطريقة غير واعية ... كأن الألم يفترسها افتراسا .. وكانت وجوها مصفرة كئيبة عليها آثار التراب المختلط بالدم المتجلط ... وكان فـي بعضها دم ما زال رطبا طازجا ينز من جرح في أعلى حاجب ذلك الوجه ... ويبدو أن صاحبه لم يلتفت اليه فقد كان في حالة شرود كاملة ....

كان الدم يتساقط على وجهه وملابسه ولا يفعل هذا الانســان شيئا سوى ان يزيحه باصبعه اذا اقترب مـن عينيه ...

وصرت اتنقل ببصري من وجه الى آخر .. واجدها جميعا متغضنة ولا شيء يميزها عن بعضها بعضا .. ثم وقف نظري على وجه ... كان صاحبه قد اتى قبل أن يطلع النهار .. ولا ادري لماذا ركزت عيني على مكانه في الظلام حتى استطيع ان أراه بوضوح عندما يطلع النهار .. وقد شغلني قتل الضابط للحظات عن اي شيء آخر .. والآن واتت الفرصة لأتامل هذا الانسان ..

كان وسيم الوجه .. في الخامسة والعشرين ـ هكذا خيّل اليّ ـ على شفتيه ابتسامة ميتة .. أو ابتسامة في طريقها إلى الموت .. يرتدي ملابس فاخرة .. حليق الذقن والشارب ...... وكان يداعب أصبعه الوسطي من يده اليمنى في شرود ثم يرسل نظرات الى المكان ... ويحاول أن يبعث ابتسامة ولكنها ماتت أو ظلت في طريقها الى أن تموت ..

وصرت أمر بين الوجوه ثم أعود الى هذا الوجه .. ولاحظ صاحبنا أنني اعاود النظر اليه بين الحين والحين.. وكنت اسأل نفسي .. ترى هل رأيت هذا الانسان قبل ذلك ؟ أين ومتى ؟ ترى ماذا يكون مصيره بعد حين ؟ وماذا يكون مصيري انا ؟.. لقد كنا جميعا نقف على حافة الأبدية .. وكانت رائحة الموت تملأ انوفنا .. فقد كان الموت هو الحقيقة الوحيدة التي نمارسها في هذا المكان...

واقترب هذا الشاب بوجهه مني .. فقد كان لا يبعد عني بأكثر من شبرين .. وباهتمام بالغ همس في اذني :

ـ اريد ان أفضي لك بشيء بالغ الاهمية ..

وارتعدت فرائصي ... ماذا يمكن ان يقول هـــذا الشـاب لي ؟ وقلت له وكأني أدفع خطرا عني :

ـ انا لا أعرفك .. ولم ارك قبل الآن ..

وكأنه لم يسمع كلماتي ..

وخيّل الي لحظتها ان ابتسامته قد بعثت .. ولكني عرفت بعد ذلك أنه كان وهما صوره لي اقتراب وجهه مني. وقال لي :

ـ اسمي عاطف .. اعمل في بنك مصر ...

ـ يا سيدي لا اعرفك .. واسمك لا يذكرني بشيء..

ـ لا ترفع صوتك واستمع لما أقول .

.. وقلت لنفسي ربما يكون هذا الشاب في ورطة.. وتخيّل انني استطيع ان امد له يد المساعدة .. وفي نوبة من نوبات الشهامة .. قررت أن استمع اليه .. والتفت الي في حمسة .. وآلمتني نظرته الحزينة ... وقلت له :

ـ ماذا تريد ؟.. انا تحت أمرك .. ليتني استطيع ان اقدم لك شيئا ...

ـ الا تعرفني حقا ؟

ـ كـــــلا ....

ـ حاول ان تتذكر .. وجهك ليس غريبا عنـــي .. يخيّل الي انني رأيتك في مكان ما ..

ـ صدقني .. لم ارك قبل الآن ...

ـ لماذا يبدو وجهك مألوفا لدي اذن ؟

ـ لست أدري ....

ـ هل تستطيع ان تكتم سرا ؟

ـ في هذا المكان ؟

ـ نعـــــم .....

اليس من الخير ان تحتفظ بأسرارك هنا ؟.. ربما...

ـ ربما !!!! ولماذا ربما ؟ يستطيع اي انسان أن يكتم سرا ....

ـ اذا كان ذلك الانسان أقوى من السوط .

ـ وهل السوط أقوى من الانسان ؟

ـ لست أدري ربما ....

ـ هذا لا يهم ... سأقول لك سري ....

ـ انصحك بالتريث ....

ـ دعك من هذا سأقول لك ...

ـ ولماذا تقول لي انا بالذات ؟

ـ وجهك يبدو مألوفا لدي ...

ـ الا تخشى ان يخونك التقدير ....

ـ وماذا يهم ؟

ـ في الحقيقة أنك تثير اهتمامي ...

ـ كأننا اصدقاء ...

ـ في الماضي كـــــلا ...

ـ اقصد ان نتصادق الآن ...

ـ أنت تمزح ولا ريب ..

ـ كلا .. انا اعني ما اقول ...

ووجدت نفسي ابتسم بسمة ساخرة من ذلك الانسان العجيب .. افي مثل هذا الوقت يحاول أن ينشيء صداقة ...؟ ربما احساسه بالخطر هو الذي يدفعه الى الارتباط .. ربما يريد أن يحتمي خلف شيء ما .. ربما ... وربما .....

ووجدت وجهه صبوحا نبيلا مليئا بالأسى .. ونظره صافية حزينة تشع من عينيه وابتسمت من جديد .. وكانت ابتسامة عذبة مخلصة .. وكانت لحظة سعيدة ... وكدت اضحك وأنا أقول له :

ـ أنا موافق .. لا بأس أن نكون أصدقاء ... اسمي ..

وقاطعني :

ـ نسيت ان اقول لك السر ..

ـ اي سر ؟

ـ السر الذي حدثتك عنه قبل قليل ...

ـ آه لا بأس .. اني مصغ اليك ...

ـ وتلفت حذرا هنا وهناك ... وبدت عليه علامات الجد والاهتمام ...

ـ الموضوع له علاقة بنبيلة ...

ـ نبيلة ؟

ـ نعـــــم ..

ومن نبيلة ؟

ـ أصبر .. سأذكر لك كل شيء في حينه ...

وبــــدأ الخوف يغزو قلبي من جديد .. وغاصــت سعادتي ... كنت أريد أن أبتعد بأي اسم لأي فتاة عــن هذا المكان .. فأي اسم يتردد وعلى اية شفة ممكن أن يأتي خلال ساعة من الزمن .. ولو كان هذا الاسم لعفريت مــن الجن على حد تعبير أحد الضباط .. ولكن عاطف هذا لــم يكن ملتفتا الى أفكاري التي تنساب عبر عقلي ... ويبدو أنه كان يريد التحدث فقط ... وأتاني صوته ضعيفا :

ـ كنت أحبها ... حبا عميقا .. وكانت هي كذلك..

وشملني احساس عارم بالسخرية وقلت له :

ـ لعلك سوف تحكي لي قصة غرامك ...

ونظر الي بجدية وهو يجيب ...

ـ نعم .. وماذا في هذا ؟

ـ لا شيء .. ولكن الا ترى ان المكان لا تناسبه هذه القصة ؟

ـ ولكني أراه مناسبا تماما ..

وتفرست في وجهه .. كان المسكين في حالة ذهول كاملة .. وأدركت ذلك عندما دققت النظر في وجهه .. واحسست بمدية حادة تمزق قلبي ... كان المسكين في حـــالة غير عادية ... لقد أذهله الموقف .. وشعــرت

بالحيرة .. ماذا يمكن ان افعله له ؟ لا شيء وفجأة رأيناه ينخرط في بكاء حاد ومن بين البكاء صار يقول ..

ـ لقد اخذوها عنوة .. توسلت اليهم أن يتركوها فرفضوا .. كانت فتاة رائعة ...

وقاطعته فقد وقف شعري من هول المعنى الذي تحمله هذه الكلمات :

ـ عمن تتكلم ؟

ـ نبيلة .. كنا سنتزوج بالأمس .. جاء المأذون لعقد القران .. ولكن

ـ ولكن ماذا ؟

ـ قبض علي انا وهي .. اخذوها ...

ـ من الذي اخذها ؟

ـ المباحث الجنائية العسكرية ...

ـ اثناء عقد القران ؟

ـ قبل أن يعقد ..

ـ لماذا ؟

ـ لست أدري ..

ـ ألتما من الأخوان ولا ريب ...

ـ انا وهي من المسلمين ..

ـ انهم يقبضون على المسلمين في هذه الايام الحمراء ..

ـ لحساب من ؟

ـ لحساب الروس ... لحساب الامريكان ... وربما لحساب اليهود ...

ـ اليهود ؟

ـ نعم ...

ـ ألسنا أعداء لهم وفي حرب معهم ؟

واقترب شيخ عجوز يسيل الدم بجوار علامة الصلاة في جبينه وهمس :

ـ نحن نعاديهم في الظاهر .. **اما حقيقة الامر فنحن خدم اليهود المخلصين ..**

ـ نحن من ؟

ـ المباحث الجنائية وسائر أجهزة الأمن ومن يوجههم ....

ـ انت تقول كلاما خطيرا ...

ـ انا أقول الحقيقة .. كل هذا يضعف الامة فلا نقوى على الحرب ..

ـ اية حرب ؟

ـ بعد أن ينتهي هذا المعترك سوف ندخل في حرب مع اسرائيل .. وننهزم أمامهم هزيمة منكرة تقتل روح الأمة ...

ـ لعمري هذا أمر غريب ..

ـ ستأتيكم الايام بما لا تعرفون ...

وكان عاطف شارد الذهن ولعله لم يدرك شيئا من هذا الحوار ولكنه كان يتمتم :

ـ عندما اتينا ذهبوا بها الى مكان .. يقولون اثنين .. وهنا أخذ مني الامباشي دبلة الزواج ..

وقال له الشيخ :

ـ اكانت دبلة من الذهب ؟

وأجابه عاطف :

ـ نعـم .... كانت كذلك ...

ـ الا تعرف ان الذهب حرام على الرجال ؟

واستغرق كل في أفكاره ... أنا أفكر في شعبـان بتاع الخانكة .. وعاطف يفكر في زوجته والشيخ يفكـر باليهود القادمين ..

قطع علينا الصمت الذي يخيم على المخزن صـوت فتح الباب في جلبة وضوضاء .. ودخل جندي كريـه كأصحابه .. يحمل في يده ماكينة حلاقة مما يستعملـه الحلاقون لحلق الشعر .. وكان يمسكها بطريقة مخيفة .. كأنه يمسك بآلة حادة يهم أن يبطش بها بانسان .. وتكلم كأنه ذكر الخنزير ..

ـ يا أوغاد .. يا أولاد الكلاب .. يا حشـرات ... ستحلقون رؤوسكم القذرة بعد قليل يا أبناء العاهرات ... وهذا شرف لا يليق بكم يا لمامة ... عبد النبي .. نعم أنا الاسطى عبد النبي .. (وقالها بطريقة كأنه يقول أنا نابليون) الحلاق السابق والمجند حاليا .. سأحلق لكم .. هـل تفهمون هذا الكلام ؟ شرف كبير يصرف لكم دون جهد .. هيا تعالى أنت ....

واختار واحدا منا وكان الذهول يلفنا كالدوامة ..
وتقدم الشخص الذي اختاره .. وجلس صاغرا بين يديه
كالمغشي عليه من الموت ... وكان هذا الشخص ملتحيا ..
ورأينا الاسطه عبد النبي الاسطوري صاحب الصيت الذائع
في عالم الحلاقة كما يدّعي ... وقد همّ به كأنه سيفترسه
وليس ليحلق له ..

ومن بين الكلمات والصفعات المتوالية حلق له ...
وكانت حلاقة عجيبة ... فقد حلق له نصف لحيته ونصف
الشارب المحلوق .. ثم حلق له شعر راسه .... وختم
الاسطى له حلاقته بضربة قوية من ماكينة الحلاقة على
رأس الزميل المسكين فتناثر الدم وسقط مغشيا عليه ...

واستمرت الحلاقة اكثر من ساعتين بين الصرخات
والأنّات المكتومة .. والكلاب تعوي في فناء السجن ..
وماكينة الحلاقة في يد عبد النبي التي تقطر دما ..
وضحكات الجنون ترتفع فوق الصرخات والأنّات وعواء
الكلاب الضارية في فناء السجن ...

وجاء دوري في الحلاقة وكان نصيبي جرحا عميقا
في أعلى جبهتي ..

وانتهت هذه المجزرة وانصرف الاسطى عبد النبي
ضاحكا مسرورا .. ولم ينس قبل أن ينصرف أن يوزع
علينا بركاته من الشتائم المنتقاة التي - والحق أقول لكم -
منها ما لم أسمع به قبل أن ينطق بها الأسطى عبد النبي ..
...... وانشغلنا بعد ذهابه بتضميد جراحنا .. ولم تكن
هناك أدوات الاسعاف اللازمة فكنا نمزق ملابسنا الداخلية
ونحاول أن نكتم الدم المتدفق ...

واذكر أنهم أثناء ذلك قذفوا لنا بأحد المصابين العائدين من التحقيق ... وكان ذلك المسكين قد أخذ علقته منـــذ يومين وترك في العراء حتى جيفت جروحه وتقيحــت .. وفاحت رائحتها الكريهة .. فلحظة دخوله المخزن هبـت رائحة كريهة كأنها صادرة من قبر دفن صاحبه حديثا ... وتكوّم الرجل بيننا ولم ينقطع صراخه لحظة واحدة ...

« رجلي يا ناس .... الحقوني يـــا ناس ...... النار .. النار .. يا ناس .. حا أموت .. الا يوجد فيكـم مسلمون .. والله ما اعرف حاجة عن الاخوان .. الله يلعن السياســـة .. يا ناس أنا عربجـــي .. ايش عرفنـــي بالاخوان... يا ناس واحد بطفي النار اللي في رجلي »...

كانت قدمه اليسرى ملتهبة وممتلئة بالصديد .. ولم نكن نملك غير الدعاء بأن يخفف الله آلامه ......

وعندما اشتدت آلام الرجل وعلا صراخه حتى جاوز المكان .. اندفع الدم في عروق أحد الذين معنا وقام وطرق الباب طرقا عصبيا حتى يأتينا أحد الحراس .. وتجمـــد الدم في عروقي .. وفي عروق الموجودين على ما اظن .. ولم نتمكن من منعه فقد قام وفعل ذلك في حركة خاطفة.. وصح ما توقعنا .. فقد فتح الباب وظهر من فرجته ثلاثة من الجنود كأنهم الشياطين .. وفي يد كـل واحد هراوة ضخمة .. وكأنهم كانوا على استعداد وفي انتظار اشـارة البدء وصاح رئيسهم وهو أقبحهم وجها :

ــ وقعتم فى المحظور يا أولاد الكلب .. كنا ننتظـر هذه الفلطة .. هيا الى الخارج جميعا ..

وأوثقونا صفا متجاورين ولم يأت معنا الرجل الجريح مما كان بقادر على الوقوف .. وقد تأكد رئيس الحرس من ذلك بعد ان طحنه بهراوته طحنا .. ولم يقم الرجل بـــل كسرت ذراعه في هذه العلقة ... أما ما فعلوه بنا فقد كان شيئــا جديدا .. لقد أرغمونا على كنس فناء السجـــن بأيدينـــا التي مزقها الزجاج الدقيق المتناثر في الفنـــاء واوسعونا ضربا ولكما ورفسا ثم جعلونا نلحس سلالـــم السجن بألسنتنا تحت ضغط السياط والهراوات ونهش الكلاب ....

وعدنا الى المخزن والدماء تسيل من أفواهنا .. ومنا من صاحبه ورم في لســانه حتى وقتنا هذا ..

أما الرجل الذي تركناه جريحا يعاني من الصديـــد الذي ملأ قدمه فقد رأيناه يفعل شيئا عجيبا ...

كان يتبرز ثم يدهن قدمه المتورمة ببرازه علّه يطفيء نارها المستعرة .. ثم انتابته حالة عصبية فصار يأكـــل البراز ويصرخ صراخا عاليا وحاولنا رغم كـــل ما حدث أن نهدّئه وأن نمنعه مما كان يفعل ..

ووجدت دموعي تنساب على خدي دون صوت ... كان قلبي يتمزق ... وكان هو يتمزق وينضغط تحت ثقل يد قوية عاصرة ... ولم يفكر أحد منا في استدعاء الحرس لاسعاف هذا الرجل المسكين ولم ينقطع صراخه طـــوال النهار ....

وفي الليل وأثناء تغيير نوبة الحرس المسائية صـــار الرجل ينادي زوجته وأبنائه بأعلى صوته .. ويطلب منهم

ان يسامحوه ويغفروا له ذنوبا لا نعرفها .. ثم اختلج جسده وأسلم الروح ....

وفي الصباح وجدنا في وجهه تعبيرا هادئا مطمئنا... كأن الله قد غفر له .

بعد أن مات هذا الرجل وعرف كل من في المخزن انه مات انفعل احد الموجودين وبكى بصوت مكتوم ... ثم ارتج المخزن بالبكاء .. وصلينا عليه ونحن في أماكننا وهو غارق في برازه وصديده .... وابتسامته الهادئة التي لم نرها الا في الصباح ..

وكانت هذه هي الليلة الثانية في السجن الحربي .. الليلة الثانية التي لم أذق فيها طعم النوم .. واذا أضفنا الأربعة أيام التي قضيتها في المحمصة بأبي زعبل فيكون مجموع ايام السهر ستة ايام كاملة ... ويبدو أن معظمنا قد نسي أن هناك ضرورة حياتية اسمها النوم..

وفي هذه الليلة كان جوفي يحترق من العطش مما جعلني اشرب قدرا أكبر من البول الذي جمعناه في أوعية المطاط طوال النهار ..... وجاء النهار ومعه الجند ليفعلوا معنا ما فعلوه بالأمس .. فتكلم احدنا في صوت ضعيف :

ـ يا أفندم .. فيه واحد ميت ...

واشار بيده الى الجثة الهامدة وارتسمت على وجه الجندي ابتسامة وقحة :

ـ واحد فقط يا أولاد الكلب ؟ أين نذهب بوجهنا من سيادة العميد ... اي انسان هذا الذي يتحدث عنه الجندي ؟؟؟ لا شك انه ليس من البشر .. الا يؤثر فيه منظر الموت الجليل ؟

لقد رأيت جنديين يحملان الجثة وهما يتضاحكان ويتغامزان كأنهما يحملان .. ماذا أقول ؟ كأنهما يحملان ارخص الاشياء وارخصها قيمة ...

وذهب الرجل المسكين الذي لم نعرف عنه شيئا سوى اسماء ابنائه الذين ظل يناديهم في لحظاته الاخيرة قبل ان يموت .. لقد ذهب الرجل الى مكان آخر خلف الحياة الى الله الذي يجد عنده العدل والرحمة والسلوان ...

وكانت الافكار في هذا اليوم تمور في نفسي ...

ما الحياة ؟ وما الموت ؟ ما الظلم ؟ وما العدل ؟ ما العزة وما الذل ؟ ما الحب ؟ ما البغض ؟ ما الجوع ؟ ما الخوف ؟.. كل هذا ليس سوى كلمات .. وما أنا ؟ لست سوى كلمة .. وما الألم ؟ أيضا كلمة ، وما الفكرة ؟ وما الصنم ؟ كلمات ... الحق والباطل .. ولكن .. تختلف الكلمات وتتباين .. هناك كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار ... وهناك الكلمة الخالدة .. طيبة كشجرة طيبة ... أصلها ثابت وفرعها في السماء .. تؤتي اكلها كل حين باذن ربها .. ويضرب الله الامثال للناس .. والحياة التي نعيش فيها ويصنعنا بعضها ونصنع نحن البعض الآخر ... ليس هذا كله الا

صراع بين الكلمات .. الكلمات الخبيثة .. والكلمات الطيبة .. ونحن بين هذه وتلك في علو وانخفاض .. ولا يتربع فوق عرش الحياة في النهاية ـ التي لا يمكن قياسها بمقاييس البشر ـ الا أصحاب الكلمة العليا .. الكلمة الطيبة ذات الأكل المتجدد الدفاق اللامتناهي ما دام للوجود حس أو شعور .

الحقيقة اننا واجهنا الموت في هذا المخزن وبعضنا ناله ... قضيت في هذا المخزن ثلاثة أيام ونقلت في اليوم الرابع الى الزنازين .. ولم يتركني الموت لحظة طيلة العام الذي قضيته في السجن الحربي ... فقد كنت ألقاه في كل دقيقة وفي كل وقت .. وقد ترك هذا العام في نفسي أثرا لا يمكن أن يمحى أو يوصف أو يتخيله انسان غير ذلك الذي عاشه وعاناه ...

وقد تكونت ثقافة مشتركة بين هؤلاء الذين عاشوا تلك الايام المفزعة ... فكم من الكلمات لا تعني شيئا بالنسبة لكثير من الناس .. ولكن هناك كلمات تتردد بين هؤلاء الذين كانوا هناك .... فتسري بينهم كما تسري الكهرباء في سلك النحاس ويكون في نفوسهم معنى لا يختلفون عليه ..

كانت أكثر اللحظات أمنا تلك التي يحكم فيها الحراس علينا غلق باب المخزن .. رغم الرائحة القذرة التى تملأ المكان من البراز والبول والصديد .. الموجودة في كل مكان ورائحة كريهة أخرى تهب من الاجواف النى أنتنها الجوع والسغب وقذارة الاسنان ... وكان صوت المزلاج عندما يتحرك ايذانا بفتح الباب يجعل كل من يسمعه ينتبه ويصل

الـــى قوة انفعاله وتمتلىء عروقــه بالأدرينالين تحفـــزا واستعدادا لمواجهة الخطر ... ويتمثل لنا أسوأ الاوقات فـــي لحظة تسليم الطعام الضئيـــل الكمية .. القــذر الصناعة .. لأنهم ينتهزون هذه الفرص فيوسعوننا ضربــا ولكما وأذى ..

وكـان كل واحد ينتظر لحظته الرهيبة .. لحظـــة استدعائه الى التحقيق وكان عذاب الانتظار رهيبــا .... هناك من مات في انتظار هذه اللحظة .. لم يستطع قلبــه احتمال ذلك القدر العارم من الخوف ... فلم يكن أمامه غير الموت ...

الفصل العاشر

الزنزانة ٢١٠ في انتظار التحقيق

كنت اعيش هذه الايام في انشغال شديد .. دائب التفكير في السبب الذي من اجله جاءوا بي الى السجن الحربي ... وكان ظني انه لا يذهب الى هناك الا من كان ضالعا في المؤامرة التي تكلموا عنها .. وكنت أيضا دائب التفكير في الكلمات التي تفوه بها ضابط المباحث امامي في ابي زعبل والتي لم افهم عنها شيئا لمدة طويلة بعد ذلك .. وكنت افكر في العذاب الاسطوري الذي ينتظرني في التحقيق الذي لم يتم بعد .. وكنت احاول ان اتخيل كيف سيسير التحقيق .. وكيف يمكنني ان ابتدع طريقة في حديثي مع الضابط المحقق استطيع ان اخلص بها من عذابه .. وكنت افكر في الظلم الذي يفرد جناحيه على سماء مصر ... وكنت افكر في هذه الاجهزة القادرة المتسلطة التي تفعل ما بدا لها دون وازع من دين او ضمير .. وكم سألت نفسي .. هل يعرف عبد الناصر ما يدور

في اروقة السجون وظلام الزنازين ؟ وكانت الاجابة نعم يعرف والادلة على ذلك كثيرة والشواهد متعددة لا نستطيع تجاهلها ...

وسوف اذكر شاهدا واحدا ...

الصحفي الكبير محمد حسنين هيكل .. صديق عبد الناصر .. الرجل الوحيد الذي احتفظ بمكانته عالية مع الزعيم حتى مات ... فيلسوف الاتحاد الاشتراكي .. الذي شارك بفكره بكثير مما مرّ بمصر من احداث ...

لا اريد ان اطيل عليكم ..

لقد رايت بنفسي محمد حسنين هيكل وهو يدخل بنفسه الى فناء السجن الحربي بسيارته السوداء الفارهة .. ثم ينزل منها ويأتيه سعد زغلول عبد الكريم مهرولا وهو كبير المباحث الجنائية العسكرية التي تضرب وتقتل وتشرد وتفعل بالعباد ما تشاء باذن من من ؟؟ ما علينا ...

دخل الصحفي الكبير وجوقات التعذيب تعزف لحنها الصاخب اللاانساني .. السياط تعوي والبشر يصرخون .. ووقف الصحفي الكبير في ساحة السجن ورأى بعينه وسمع بأذنه اكثر من نصف ساعة حتى جاءوه بواحد من أصحابه الذي أراد له الله أن ينجو من العذاب .. واخذه بسيارته وانصرف .. فان كان الزعيم لا يعرف شيئا فلا ريب أن الصحفي قد اخبره .. وان كان الصحفي لم يخبره بشيء .. والزعيم لا يدري بما هو كائن في سجون

مصر ومعتقلاتها فالأمر أعظم وأدهى .. ونعود من هــذا الاستطراد الى سياق القصة حيث كنا في المخزن رقم (٦) الرهيب ..

في صباح يوم (١٦) سبتمبر (١٩٦٥) وكانت الطاحونة الرهيبة تدور دورانا مخيفا مفزعا كشأنها كل يوم .. فتح الباب علينا كالعادة .. وأثناء الركل والشتم والايـذاء .. اخرجونا وصفونا صفوفا أمام المخزن .. وجاء عريف وفي يده دفتر كبير .. وكان غلاما في الثامنة عشرة من عمـره علـى اكثر تقدير .. وجلس على كرسي يحمله له أحـد الجنود ووضعه له باحترام شديد ... وجلس العريف في اسعلاء وتكبر وزهو .. وهو ليس أكثر مـن عريف .. ورغـم هذا ففي نفسه كل هــذه الطاقة على التكبـر والتجبر !!!! كان هذا العريف يتصرف ككبار جنـرالات الحرب الالمان النازيين الذي كنا نقرأ عنهم ونسمع بهم ... على أية حال لم يكن هذا غريبا في شيء .. فقد كان فـي سلطة هذا العريف أن يفعل ما يشاء دون مساعدة من أحد في الجمع الذي يقف أمامه وفيهم ضباط في الجيش .. فكان من المنطق أن تتوهج في ذاته تلك الجذوة الشيطانية المدمرة ..

وبعد أن جلد بعض الاشخاص الواقفين بالسيــاط لغير ما سبب سوى أن يؤكد في ذواتنا أنه على كل شيء قدير .. وأن سلطانه لا حدود له ولا غاية لمنتهاه .. صار ينادي الاسماء ويرسلها كيف ما اتفق الى الزنازين المختـة في هذا البناء الشيطانى .. وكان يدعو المعتقل باسمه ثـم يذكر له رقم الزنزانة فينتقل أليها الشخص المراد كالريح في هبوبها والويل له اذا تقاعس أو تردد أو كانت رجـله

مصابة لا يقوى على الجري بها ... في هذه الحالة ينال عذابا رهيبا موجعا بالغ الألم ... وكان عليه أن يستدل على مكان الزنزانة من الارقام المبينة أعلى الزنازين باللون الاسود ... ثم ناداني العريف ومعي اثنين من الاخوة .. وكان صوته يزمجر بين صفعات الجند والسياط الهاوية على أي مكان في جسدي غير آبهة لشيء.. الزنزانة (٢١٠) وانطلقت كفيري في سرعة البرق ولم أتبين من كان يجري معي .. ولكن السياط واللكمات تقابلني في كل شبر من فناء السجن المريع .. وعلى الدرج الطويل المؤدي الى الدور الثالث حيث كانت الزنزانة المقصودة كان يقبع العذاب على كل درجة من درجاته ممثلا في جندي قميء الشكل عفن الرائحة يطل الشر من بين عينيه وتتجمع الاهانة في قبضته سواء كانت خاوية أو ممسكة بسوط طويل اسود ممتلىء باللعنة ..

وعلى باب الزنزانة كان يقف (سامبو) كأنه الشيطان .. ومن دخل السجن الحربي ولا يعرف (سامبو) ؟.. لقد كان أشهر من الكلب (عنتر) .. وكان من معالم السجن في تلك الايام .. لا يصفع على الوجه الا بكلتا يديه .. فيصيبك بدوار طوال اليوم وبعد أن قال لنا أشياء كثيرة لا أذكرها ادخلنا الزنزانة واحكم اغلاقها علينا ووقفنا ثلاثتنا لاهثين من فرط الضرب والعدو والانفعال والسعادة أيضا ... فقد كنا نحلم اثناء وجودنا بالمخزن باللحظة الجميلة التي سيصرفوننا فيها الى الزنازين حيث نتخفف من كمية العذاب ونكون بمنأى عن الجند .. هكذا كان الظن ....

وحقق الله لنا الحلم .. وها نحن أولاء في زنزانة مقفلة في الدور الثالث حيث لا يسمع صوتنا أحد ولا يشعر

بنا مخلوق .. ونظر كل واحد منا الى زميله وانفجرنا في ضحك جنوني .. وبعد لحظات اكتشفنا أن هناك شخصا رابعا في الزنزانة وما كدت أتفرس في وجهه البريء حتى تبينت أنه الطبيب الذي التقيت به قبل مدة في المحمصة بمعتقل ابي زعبل ... ووجدتني أقبل عليه بلهفة ..

ـ انت فلان ؟

ـ نعم .. وانت فلان ؟

ـ نعم ...

وعذنا الى الضحك من جديد .. وكانت سعادة هذا الصديق (ف) كبيرة فقد علمنا منه أنه ظل في الزنزانة وحيدا لمدة طويلة حتى كاد يجن من الوحدة .. وكانت الزنزانة عارية من أي شيء عدا وعاء مطاطي للتبول .. وكان الطبيب يرتدي بنطلونا وقميصا صيفيا خفيفا ... وكذلك كان كل منا ... وبهذه الملابس عشنا الصيف والشتاء .. بلا غطاء في زنزانة كانت تعوي بها الريح في الليالي الباردة كأنها الذئاب الجائعة ...

وفي لحظات نسينا التحقيق والاعتقال والتعذيب وكل شيء ..... وانطلقنا في حديث طويل تناولنا فيه كل شيء .. كان حديثنا مضحكا مليئا بالفكاهة والطرافة ... وصرنا نضحك على كثير مما مر بنا من أحداث ... وأصبح كل واحد كأنه يعرف الآخر لسنوات طويلة .. مضت ... رغم أن معرفتنا وشيكة الحدوث .. كنا كراكبي سفينة تحطمت على صخرة ونجا منها اربعة سباحة الى شاطيء قريب .. وفي السفينة ترك كل واحد منا هويته وشخصه ... وذهب الى الشاطيء المهجور الا بقلبه وعقله

ولا شيء آخر .. فقد الماضي ولا أمل له بالمستقبل ..
هكذا كان حالنا .. وظل كذلك لفترة طويلة نعيش مجردين
من اية اشياء أو متعلقات .. كل واحد يواجه الآخرين
بذاته فقط مجردا من اي شيء آخر .. كان الأمر على هذه
الصورة ببساطة تامة ..

وقد يكون مفيدا ان اقول شيئا عن سكان الزنزانة
٢١٠ ..

الطبيب (ف) شاب في الخامسة والعشرين .. نشأ
في بيئة متوسطة الحال أبوه أحد رجال التعليم الابتدائي
يعتنق كل افكار البيئة العصرية المتوسطة من حرص على
الحياة .. واحترام الحكومة أيا كان لونها واتجاهها وعدم
مناوأة السلطة على اي حال من الاحوال ومحاولة ادخار
قدر من المال يكفي لليالي السوداء التي لا بد وأن تأتي في
المستقبل البعيد المليء بالمخاوف والتكهنات ..

.. وباختصار وصل (ف) الى كلية الطب وكان ذلك
مطمحا اجتماعيا ذا أهمية خاصة لأسرته .. وتضافرت
جهود الأب حتى اتم الابن دراسته في الكلية بنجاح .. تم
عمل (ف) طبيبا بالامتياز في مستشفى الدمرداش .. وفي
آخر يوم له بالمستشفى وعندما كان يستعد لأن يكون نائبا
تم القبض عليه .. وتعرف وهو طالب بيحيى حسين في
احد معسكرات الجامعة التي كانت تقام بالمصايف في رأس
البر أيام كان يحيى حسين طالبا بكلية الزراعة .. وتصادفا
وفرقت بينهما الايام .. ثم التقيا على قدر بعد ذلك ..
وكان يحيى قد صار طيارا بشركة مصر للطيران و (ف) في
السنوات الاخيرة من دراسته الطب ... وبطريقة غامضة

عــرض يحيى حسين عليه الاشتراك في نشاط دينـي وسياسـي ورفض (ف) لأن معنى ذلك مناوأة السلطـة ومناصبتها العداء وهو الأمر الذي جهد.أبوه في تخويفه منه وابعاده عنه ..

وفي يوم قائظ من أيام اغسطس سنة (١٩٦٥) ذهب اليـه يحيى حسين في ساعة متأخرة وطلب منه خدمـة خاصة جدا .. وبطريقة غامضة أفهمه المهمة التي عليه أن يؤديهـا .. فقد أعطاه رقما تلفونيا وأوصاه أن يتصـل بصاحبه وأن يخبره عبارة واحدة (الجماعة اتمسكت) ..

وعندما حاول (ف) أن يفهم منه طبيعة هذه المهمـة ومعنى هذه العبارة وعده يحيى أن يخبره في مرة أخـرى بالتفاصيل لأنه منشغل تماما ... وذهب يحيى ولم يعد.. ففي هذه الليلة كان على موعد مع الهرب من البلاد .. وفي الطائرة المتجهة الى (اديس ابابا) نزل يحيى بمطار الخرطوم ولم يعد ثانية ...

وكان هناك زميل ليحيى يعمل طيارا معه في نفـس الشركة وكان شريكه في أفكاره ونشاطه السياسـي .. وكان هذا الزميل واسمه (ضياء) صديقا أيضا لصاحبنـا (ف) ويعرف الكثير عنه .. ويعرف أن يحيى حسيـن كان يحاول ضم (ف) الى جماعتهم ولكنه أيضا كان يعرف أن هذه المجهودات باءت بالفشل ... وتحت الضغـوط النفسية العنيفة التي تعرض لها ضياء صار يتكلم ..

.. وفجـأة وجد (ف) نفسه في بدروم المباحـث العامة بميدان لاظوغلي بالقاهرة حيث الزنزانة المخيفـة

المبطنة بالمطاط وهو يسأل عن علاقته بالاخوان ، وعلى المسكين أن يتحمل العذاب وما كان له أن يقول شيئا.. فهو لا يعرف شيئا بطبيعة الحال ..

وانتقل من المباحث العامة الى أبي زعبل .. وهناك تلقى صنوفا عديدة من العذاب والجلد بالسياط .. ولعلكم أصبحتم تعلمون أن العذاب شيء والجلد والسياط شيء آخر .. وعليه أن ينقذ نفسه من جهنم كما فعل الآخرون ... والطريق الوحيد المنبسط لهذه النجاة ان يكذب وأن يخترع أقصوصة تجعلهم ينفضون عنه حتى يلتقط انفاسه ... وادعى أنه عضو بالاخوان .. وانه يصنع القنابل لهم .. وعندما سئل عن طريقة صناعتها أجاب بأنه يخلط مقدارا من الأثير ومقدارا من الكيروسين مثله ثم جزءا ثالثا من الكلور ...

وطيرت أسلاك التلفونات خبر القبض على الارهابي (ف) ونشرت اعترافاته بالعناوين الكبيرة في الصفحات الاولى من الصحف اليومية ... وضحك خبراء المفرقعات كثيرا عندما بلغهم هذا الكلام ..

وفي جريدة الجمهورية العدد (٤٢٨٢) بتاريخ ١١ سبتمبر سنة (١٩٦٥) كان العنوان في الصفحة الاولى :

أسرار الجهاز السري للأخوان

كشف أحد الارهابيين اسرار الجهاز السري للاخوان .. اعلن أن سيد قطب كان يرأس الجهاز ومعه لجنة خماسية تضم اسماعيل الهضيبي واحدى السيدات تدعى (الحاجة) قال ان احدا من الاخوان لا يعرف شيئا عن (الحاجة) ..

اعترف الارهابي بجرائم الاخوان ومؤامراتهم لقلب نظام الحكم واساليبهم لتضليل الشباب ومحاولاتهم ضم عناصر جديدة لتنظيماتهم الارهابية .. أدلى بهذه الاعترافات طبيب شاب ضللت به جماعة الارهاب .. قال ان خطة الارهابيين كانت تتضمن نسف محطات الكهرباء حتى يعيش الناس في ظلام .. اعترف بأن الاخوان كانوا يستغلون الدين لتجنيد الشباب وتضليلهم .. قال ان العملية التي وضع نفسه فيها لم يفهمها الا بعد فوات الاوان ولكنه لم يستطع الخروج منها .. كشف الطبيب في اعترافاته المثيرة خطط الاخوان لحظة بلحظة عام (١٩٥٩) .

هذا ما قالته الصحيفة في صدر صفحتها الاولى ..

والرأي ان كاتب هذه السطور التي قدمت اعترافات الطبيب كان يضلل الناس ويخدعهم ويجب أنْ يحاسب الآن في عهد الحرية الذي نعيشه مصر ..

ما علينا نعود الى نص الاعترافات الذي نشرته الصحيفة ..

في صيف عام (١٩٥٩) كنت في رحلة في مصيف البر وتقابلت مع يحيى أحمد حسين وكان وقتها طالبا في كلية الزراعة في جامعة عين شمس وكنت طالبا في جامعة عين شمس ايضا .. واتفقنا على الصلاة وعلى جمع الكلمة على الصلاة جماعة .. ثم انتهى المعسكر وتفرقنا وكان معنا طالب اسمه مصطفى الرشيدي زميل يحيى بالكلية وقتها .. وبعد عام ونصف تقريبا قابلت مصطفى صدفة في العتبة فسألته عن يحيى فذكر أنه انتهى من دراسته في كلية الزراعة والتحق بمعهد للطيران وسيصبح طيارا قريبا فطلبت منه أن

يعطيني رقم تليفون يحيى حسين لاني في حاجة الى سماعة طبية غير موجودة بمصر وهو يستطيع ان يحصل عليها من الخارج فأعطاني الرقم (٦٥٠٥٠) فاتصلت بيحيى وكانت أول مرة بعد افتراقنا في المعسكر ، وتقابلنا امـام سينمـا روكس بمصر الجديدة وكانت أول مرة أتقابل معه فيها بعد المعسكر ليلة العيد الصغير عام ٦١ وسرنا من روكس حتـى العباسية وشرح لي أثناء ذلك كيف يكـون الانسـان مسلما حقيقة يجب أن يقرأ تفصيلات القرآن ولم يذكر لـي أسماء كتب في وقتها ولكنه قال لي ذلك : سأذكر لك كتبـا تنمي ثقافتك الدينية في الكتب وغير ذلك ثم ذكرت له انني بحاجة الى سماعة فأمهلني بعض الوقت لعدم وجود النقود الاجنبية لكي يشتري بها ، وطلب مني ان اكون على علاقة دائمة معه بالتلفون وتكررت الاتصالات التليفونية بيني وبينه ...

وفي يوم جمعة ذهبت اليه .. وبعد الصلاة ذهبنا الى شقة قال لي : انها شقة أحد الأصدقاء اسمه محمد الغنام وكان يصلي معنا وكان هناك محمد الغنام وشخص اسمـه احمد رائف والدكتور محمد أمين (صيدلي) مندوب دعاية شركة سيد للأدوية وكنت قد رأيته قبل ذلك في الشركة عند ترددي عليها من أجل الدعاية ورأيته مرة أخرى عند يحيى في المنزل وقال لي عنوانه وأذكر انه في حارة لا اذكر اسمها عند مدرسة السبتيه منزل رقم (٥) الدور الثاني ..

ثم ذهبت الى يحيى مرة فأخذ يناقشني فـي الدين وذكر لي اسم الدكتور (علاء) فقلت له لا اتذكره فقال يحيى بأنه شقيق زميل له اسمه ضياء .. فقلت له : لا أذكر هذا الطبيب قال لي : ان أخاه رجل طيب جدا ويعرف ربنا ويقرأ في التفسيرات القرآنية على مستوى كبير .. وقال لي ان

شاء الله ستقابله يوما ما .. وذات يوم قال لي يحيى : مـا رايك في القراءة لتفسير القرآن في كتاب (في ظلال القرآن) فقلت له : ليس لدي مانع .. قال لي اشتر الكتاب من مكتبة وهبة واقرا منه وسأخبرك الخطوة الثانية للقراءة والتثقيف الدينـي ..

وبعد ذلك طلب مني يحيى أن نقرا سويا وان ابحث عن أفراد معي في المستشفى متدينين يمكن الاعتماد عليهم فـي القراءة بجد في هذهالكتب فذكرت له بعد بحثاسم الدكتور مجدي .. قال لي : هل يمكن ان يصمد في القراءة كثيرا قلت له : نعم فهو كثير المعلومات في ناحية الدين ، فقـال : اذن على بركة الله .. وفي يوم جاءني يحيى في المنزل وقال لي :ان هناك شخصا يدعى علي يسكن في شارع طومسون بشبرا وهو متدين هو الآخر ، ويعرف ربه جيدا ويريـد أن يعرفك ، فهل عندك مانع قلت له : لا .. قال : انـه مريض الآن في المنزل فهل عندك مانع من زيارته .. قلت : لا ، قال اذن هيا بنا ...

وذهبنا الى منزله .. وقالوا لنا : انتظروه فقد ذهب الى الطبيب برهة وسيعود حالا وانتظرناه ساعة تقريبـا ولم يحضر . ثم ترك له يحيى كيسا به (أبو فروة) وانصرفنا ..

وفي مرة أخرى قابلت يحيى وقال لي : ما رايك في ان تنضم الينا أنا وضياء وعلى الذي حدثتك عنه واسماعيل الهضيبي في أشياء أكثر من القراءة التي كنت مكلفا بها .. قلت له : وما هي الخطوة التالية .. قال : أن نثبت الاسلام على الارض ، فقلت كيف ؟ قال : لا يمكن الا بالقوة لنغير النظام الحالي .. وجاء ضياء وتكلمنا عن بعض المعلومات في الكتب التي قراها وفـي نفس الموضوع الـذي ينتهي الى الانقـلاب ...

قلت له : ولكن هذا قد يعرضنا للاعتقال والتعذيب ..
قال : هل ايمانك ليس بالقوة الكافية بأن تبيع نفسك في سبيل الله ... قلت له لا .. قال : لا بد أن تقوي ايمانك حتى نفهم الآية (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) . وعندها ستصبح قادرا على تحمل أعباء الجهاد في سبيل الله .. قلت له : واذا لم استطع ، قال : انت تعمل كطبيب تداوي بعض الجرحى اذا حصل اشتباك .. قلت له : قد يؤدي هذا الى اشتباك وتعذيب وأنا لا أتحمل ذلك ... قال : اذن أطلب من الجماعة أن تبحث عن طبيب من الارياف .. قلت له : نعم ...

وبعدها باسبوع حضر الي يحيى واخذني الى علي لكي اتعرف عليه فاذا به يقول لي ان يحيى قد ابلغك بالترتيب قلت له : نعم .. قال : إذن اذا كنت تريد أن تعمل على رفعة الاسلام وثباته في الارض فعليك الايمان في سبيل الله وان لا سبيل الا سبيل الجهاد .. قلت له : ولكن الجهاد قد يعرض الانسان للتعذيب والسجن في حين اننا نسير على مبادىء الاسلام ، قال لي : لا فالبنوك ربا .. والسيدات العاريات في الطرقات زنا .. قلت له : أبدا فأنا وانت نكون رأسمال البنك فلا يوجد ربا في الموضوع والسيدات العاريات هي أختي واختك فيمكن أن نصلح من شأن أسرتنا ... قال: لا .. لا يمكن الا من الراس فلا بد ان تكون الراس .. قال لي : هذا لن يكون بانقلاب عسكري كما نتوقع ولكن سيكون عن طريق ان نشل حركة المطارات والسكك الحديدية لا غير وبهذا نكون لم نقتل احدا ، وان لنا سواعد قوية في كل مكان .. فلا نخف من شيء وستكون مهمتك أن تحضر لنا بعض الزجاجات الناسفة المكونة من مادة الأثير والكلور والكيروسين الموجودة بالمستشفى ولن نحتاج الى اكثر منها

والنسب تستطيع ان تأخذها من الدكتور عزمي زميلك بالمستشفى أو مني ..

ملحوظة : كان يحيى قد اخبرني قبل ذلك ان هناك دكتورا اسمه عزمي بالمستشفى وهو على علم بكل شيء وقال لي اتصل به وكلمه .. فاتصلت به وقلت له : يحيى يسلم عليك فقال لي : أولا انا لا اعلم شخصا اسمه يحيى حسين .. وعندما قلت له الذي سيحضر لك سماعة من الخارج عن طريق خالتك قال لي : سلم عليه وأنا اعرفه .. ثم قال لي : على ان اسرتك ستضم انت ومجدي الذي تقرأ معه وأنا ذكرت له ان مجدي حديث بالمستشفى وهذا يأخذ كل وقته وان له أما مريضة وهو يعودها .. قال اذن فليجعل اللقاء بيني وبينك انت ولا داعي لمعرفة مجدي بي وكفى أن نبلغه ببعض المعلومات البسيطة أولا ثم نتدرج معه في المعلومات الى أن يعلم ... قلت له : اذن أسرتنا ستكون مكونة مني ومنك ومجدي عن بعد ... قال : نعم ، قلت له : وكيف سيعلم مجدي بالتكوين ؟ قال عن طريق يحيى وطلبت من يحيى بطارية تشحن بالكهرباء ولما علم مجدي بأنه سيحضرها لي طلب مني ان أطلب له واحدة وبعد احضارها قال مجدي : يجب ان نذهب لنشكره على البطارية .. وان نقرأ في الكتب سويا .. فذهبنا اليه في المنزل وشرح له يحيى طريقة الدراسة وهدفها ... ثم طلب مني ان يتصل بي لكي نقرأ أكثر وأخبره بأشياء اخرى .

ثم قال لي مجدي : انا عندي اجازة وفاروق عنده اجازة وسنذهب الى بلطيم لكي نقضي بعض الايام هناك فقال : انا استطيع ان آخذ اجازة واحضر معكم ثم اتفقنا وسافرنا في اليوم التالي وبعد ثلاثة ايام عدنا وفي الطريق

نزل مجدي الي بلدتهم ووصلنا انا ويحيى الى القاهرة وفي السيارة طلب مني يحيى أن نحدد مواعيد اللقاء بيننا لكي نواصل التعليمات فقلنا له : في اي مكان مثلا عندي لأنني متزوج وأنتم لستم متزوجين واذا لم تتوافر اللقاءات عندي فلتكن في مسجد السيدة زينب بعد صلاة المغرب من يوم الجمعة .. ولكن هذه المواعيد لم تتوافق ومواعيد سفر يحيى ومواعيد المستشفى فلم نتقابل ..

وفي يوم جاءني يحيى الساعة (٩) مساء ومعه ضياء وقال لي انهما اتفقا على رحلة من حلوان الى القاهرة مشياً على الأقدام فقلت له : هل هذه رياضة ؟ فقال : انها تعليمات من الرياسة فسألته ومن هذه الرياسة ؟ قال سيد قطب رئيس ومعه لجنة خماسية من افراد لا نعلمهم قد تسمع عنهم في يوم من الايام ... وستتبع هذه الرحلة رحلة اخرى من القاهرة الى بنها على الاقدام ايضا ... وقال يحيى انه سيسكن في منزل الحاجة هو وضياء وهي عاملة جمعية الشابات المسلمات ... وزوجته عضو بها وزوجة علي وبنت اخت سيد قطب وهؤلاء الزوجات سيكن حلقة اتصال مع الاسر حتى اذا أمسكت احدى الاسر تكون الزوجات هن المسئولات عن الاتصال بالأسر الباقية ...

وذات يوم ذهبت مع يحيى الى منزل قال لي انه منزل محمود الفنام ورأيت فيه يحيى وضياء ومحمد الفنام وأحد الاشخاص قالوا انه مدرب المصارعة اليابانية وكان يعلمهم وهم ممسكين بخناجر وكيفية تفاديها والوقوع من الوضع واقفا بدون أن تحدث اصابات .. ولكنه قال لي انك لا تصلح لمثل هذه الرياضة ..

ثم جاء الي يحيى منذ خمسة عشر يوما الساعة الحادية عشرة مساء وقال لي : زوجتي في (تاكس) تحت تنتظرني.

ونفذ ما اقوله لك بدقة .. اطلب الرقم (٨٩٦٦٤٦٠) واطلب شخص اسمه فاروق واذا رد عليك قل له : انا عبيد الجماعة اتمسكت .. نفذ واذا لم يرد عليك فلا تقل شيئا .. ففعلت ذلك .. وفي صباح اليوم التالي لم اجد فاروق هذا ، وقيل لي انه ذهب الى بور سعيد فسألت عن موعد عودته فقالوا لا نعلم ، وقال لي شخص اخبرني أن زوج اخته اذا كنت تعلم مكانه اخبره ان والدته في حالة خطرة فأخبرته اني لا أعلم مكـــانه ..

ويوم الاربعاء الماضي جاءني ضياء في المستشفى وقال لي ان يحيى اتصل بالرقم (٨٩٦٦٤٦٠) وقال لهم : اذا حضر فاروق يتصل بي في الرقم (٦٥٠٥٠) فاذا بضابط مباحث يطلبه بالمنزل ولم يجد غير حماه ولم يجد يحيى وفي هـــذه الاثناء كان يحيى قد مر على ضياء واخـــذ دولارات كانت لديه .. وقال انه سيذهب الي الخرطوم ثم السعودية .. ثم قابلت مجدي يوم الاثنين الماضي وذكرت له ان جماعـــة كانت ستعمل انقلاب اتمسكت عن آخرها وانه احـــد افراد هذه الجماعة التي طلبت منيَ فـــي يوم ان اكـــون مشتركا فرفضت .. ثم طلبوا مني أن أكون طبيبا اعالج الجرحـــى اذا حدث اشتباك ولكني خشيت ولم اوافق ...

وقد أخذت (تركيبه) من الزجاجات مـــن عزمي .. قال لي ثلث كلور وثلث اثير وثلث جاز ... وتوضع فـــــي زجاجات حمراء اللون صغيرة (١) وقد اخذها من (علي) ولا

---

(١) ولماذا لا توضع في زجاجات خضراء أو صفراء أو زجاجات برتقالية اللـــون ؟

اعلم الى اين ذهب بها كما انني سمعت بعض الاسماء من يحيى مثل الحاجة وابن اخيها وكابتن سعد رئيسة بالعمل وكيف انه اقنعته بفكرة البيع لله .. واحمد رائف الذي رأيته مرة ... وقد اخبرني يحيى انه ضمن اعضاء اللجنة الخماسية واسماعيل الهضيبي والحاجة التي لا اعرف بيانات عنها .. واعرف ان يحيى كان سيسكن عندها ...

ف . ع
١٩٦٥/٩/٢

انتهت اعترافات صاحبنا الطبيب (ف)

سوف أدع هذه الاعترافات بين يدي القارىء الكريم ليقرأها مرة بعد مرة ولن أعلّق عليها بشيء .. سأدع القارىء يستنبط منها كل ما اريد ان اقول .. ولكني اريد ان اقول له شيئا بالغ الاهمية .. هذا الكلام المكتوب والذي قراته منذ لحظات قدم بموجبه اناس الى محكمة امن الدولة العليا وصدرت ضدهم أحكام بالغة القسوة .. فمثلا هذه القصة الركيكة التي قرأناها في الاعترافات .. هل تدري ماذا حدث لابطالها ؟ أتدري ما هو مصير الاسماء التي ذكرت فيها ؟.. انا اخبرك :

١ ــ نفّذ حكم الاعدام في واحد .

٢ ــ خفف حكم الاعدام عن واحد الى الاشغال الشاقة المؤبدة .

٣ ــ حكم على واحد بالاشغال الشاقة المؤبده .

٤ ــ حكم على واحد بالاشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما .

٥ ــ حكم على سيدة بالاشغال الشاقة المؤبدة .

٦ ــ حكم على آنسة أخرى بالاشغال الشاقة لمدة عشر سنوات ؛

٧ ــ حكم على واحد بالاشغال الشاقة المؤبدة ثم اغتيل وهو ينفذ الحكم .

٨ ــ ثم حكم على واحد بالاشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات .

وقضى الباقون سنوات بلغت السبع فى المعتقل ..

أرجو ان تعيد قراءة الاعترافات ثم نتأمل في الاحكام .. وبعد أن تنتهي من تأملك تعيد التأمل من جديد.

استطراد لا مندوحة عنه ....

بينما اقلب صفحات الصحيفة لأنقل منها هذه الاعترافات طالعنى عنوان جانبي بها يقول :

(راي الاسلام في مؤامرة الاجرام)

اذاع شيخ الازهر امس بيانا أوضح فيه راي الاسلام في مؤامرات الاجرام اعلن ان اعداء الاسلام حاولوا ــ حين عز عليهم الوقوف امامه ــ حرب الاسلام باسم الاسلام فاصطنعوا الاغرار وامدوهم بامكانيات الفتك وادوات التدمير .. ولكن الله كشف أمرهم ليظل الاسلام أكرم من أن يتجر به ..

وقال شيخ الازهر في بيانه :

أيها المسلمون .. ان الازهر الذي عاش عمره الطويل لفقه الاسلام والتعريف به ودراسة القرآن والاستمداد منه، وورود الحديث الشريف والصدور عنه قد شرفه الله بثقة المسلمين جميعا فيه فائتمنوه على عقائدهم وحكموه في كل

ما يعن له من اقضية الحياة ومحدثات العصور .. ولقد كرم المسلمون شرف مهمته واخلاص نيته فضموه الى مقدسات الاسلام ...

وان الله الذي يعلم ما تضطلع به مصر من مسؤوليات وما يتحمله قادتها من تبعات قد شاء ان يدلها على أوكار الخيانة وكهوف الغدر ومنظمات الدمار حيث تواجه مرحلة انطلاقها بعروبة موحدة الهدف اسلامية شريفة السلوك وانسانية نبيلة المثل ...

واذا كان القائمون على امر هذه المنظمات قد استطاعوا ان يشوهوا تعاليم الاسلام في افهام الناشئة واستطاعوا ان يحملوهم بالمغريات على تغيير حقائق الاسلام تغييرا ينقلها الى الضد منه ، والى النقيض من تعاليمه ... فان الأزهر لا يسعه الا ان يصوب ضلالهم ويردهم الى الحق من مبادىء القرآن الكريم والسنة المشرفة ، فالاسلام كما قال عنه الرسول — صلى الله عليه وسلم — حين ساله جبريل عليه السلام — فقال يا محمد : أخبرني عن الاسلام .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله .. وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت أن استطعت اليه سبيلا .. قال جبريل : صدقت . ثم قال : فاخبرني عن الايمان، قال : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال جبريل : صدقت ، ثم قال : فاخبرني عن الاحسان ، فقال : أن تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ..

هذا هو الاسلام كما بيّنه رسول الله فحين يشترط المتآمرون على الاسلام ان يكون المسلم منضما لجماعة خاصة تستهدف البغي وتدعو الى التمرد فانهم بذلك يدخلون على الاسلام مما ليس منه ويحاولون أن يجعلوا لمنظماتهم قداسة حتى يستولوا على صغار العقول وهواة التحكم والسلطة..

وان الاسلام الذي يتجرون باسمه يصون حرمة المسلم في دمه وماله وعرضه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يحل دم مسلم يشهد أن لا اله الا الله واني رسول الله الا باحدى ثلاث : الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة ... وصح عنه أيضا انه قال في حجة الوداع اي يوم هذا ، قلنا الله ورسوله أعلم فسكت ثم قال أليس يوم النحر ؟ قلنا بلى يا رسول الله .. قال فان دماءكم واعراضكم واموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ، ستلقون ربكم فيسألكم اعمالكم فلا ترجعن بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض .. الا فليبلغ الشاهد الغائب ، فلعل بعض ما يبلغه يكون اوعى له من بعض من يسمعه ..... ثم قال الا هل بلغت ؟

وصح عن أبي هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال من حمل علينا السلاح فليس منا .. ومن غشنا فليس منا ... واذا ثبت في اغتيال النفس الواحدة فما بالك باغتيال الجماعات البريئة وترويع الآمنين ـ واذا كان مال المسلم على المسلم حرام فما بالك بالاعتداء على المال العام والمصالح المشتركة والمرافق الحيوية التي يحيا بها المواطن وتعيش عليها الامة .....

واني لاعجب اشد العجب ممن يدعي الاسلام والغيرة عليه .. كيف يسوغ له أن يوالي اعداء الاسلام وأن يأخذ منهم مقومات الفتك بالمسلمين ويستعين بمالهم على اخوة له في الدين الا ساء ما يدعون وبئس ما يفترون ... ألم يقرأوا قول الله تعالى : ـ «ومن يتولهم منكم فانه منهم ـ» .. ألم يقرع سمعهم قول الله تعالى ـ « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم او عشيرتهم ـ »

ايها المسلمون ـ ان الاستعمار قد يئس أن يعيش بينكم وان يتحكم في أموركم وأن يمتص خيراتكم ولكنه دفع منكم نفرا ليهدموا مكاسبكم ويضعوا العراقيل في سبيل نهضتكم فتنبهوا جيدا الى كيد هؤلاء وتآمر هؤلاء حتى لا تنتكس ثورتكم وتعودوا الى عهود التبعية والاقطاع والراسمالية ...

وان الازهر الشريف كلياته ومعاهده ووسائل اعلامه يلقنكم عقائد الدين كما أرادها الله صافية من تعكير الضالين مستقيمة من التواء المبطلين تأخذ بيدكم الى خير مجمع عليه وتنجيكم من شر غير مختلف فيه ... فسيروا على بركة الله راشدين مهديين وما توفيقنا الا بالله وهو يتولى الصالحين .. »

تعقيب على بيان كبير المشايخ :

في الحقيقة ليس من السهل أن أناقش بيان ذلك المخلوق في سطور قليلة فالامر قد يحتاج الى كتاب كبير لنعطي الأزهر ما يستحقه من شرح واطناب للحالة المزرية التي وصل اليها في السنين الاخيرة ..

ولكننا نترحم على شوقي وعلى محمد عبده ثم نقول :

كان حريا بحسن مأمون أن يحترم سنه وأن يحفظ مقامه ولا يتردى فيصير بوقا في يد عصابة مثل ما فعل الجهال من الناس .. وكان عليه أن ينتظر دورة الزمن أو يراها بعين بصيرته - ان كانت له بصيرة - فيرى كيف يقضى في مصر على النفاق والمنافقين ويحاسب قطاع الطرق عما اقترفوه ويودعون السجون على ما فعلوه في حق الوادعين الابرياء من قتل وتشريد ...

وهو قد اتهم الاخوان في بيانه بعمالتهم للاستعمار .. اي استعمار هذا الذي تعنيه يا شيخ حسن مأمون ؟ الاستعمار الامريكي ؟ أم الاستعمار السوفيتي ؟ أم تراك تقصد الإستعمار اليهودي ..؟

ولن أقول أكثر من هذا في هذه النقطة ..

يا لضيعة شيخ الازهر وشيوخه !!!

أين كانت نخوتك يا شيخ الازهر عندما كانت طائراتنا المغيرة تدك قرى اليمن وتقتل الشيوخ والاطفال والنساء ؟ لا اظنك لم تسمع بهذا واذا ادعيت فلن أصدقك .. فالشعب كله كان يعرف هذه الفظائع ولا يملك غير السكوت والا ضرب بالنعال والقي في غياهب السجن ومنع عنه القوت وشردت اسرته .. و .. و .. و ..
ولا اظنك لم تسمع بما فعلته مراكز القوى بالاخوان في السجون والمعتقلات ، اما كان اجدر بك ان تقول كلمة الله .. وانت تعلم اكثر من غيرك أن الساكت عن الحق شيطان اخرس ، .. أم تراك نسيت هذا الحديث الشريف ...؟

كان يجب على شيخ الازهر ان يتحرى الدقة فـي ذلك البيـان الذي أذاعه وألقاه على الصحف وطيرته وكـالات الأنبـاء ..

كان عليه أن يخشى الله أولا وقبل كل شيء وأن يعرف ان الرازق هو الله وهو المحيي والمميت وليس آخر ..

كان عليه ان يعمل حسابا للأزهر الذي بسببه يقبض راتبه الكبير ويركب سيارته الفارهة ويقبل الناس يده .. فلو ضاع الأزهر لضاعت من شيخه هذه المخصصات .. وكفى سببا لضياع الازهر أن يبقى شيخه في مكتبـه ينتظر اوامر الضابط من المباحث العسكرية أو العامة بأن يلقـي بيانا مـا ..

كان عليك أن تدافع عن المسلمين وتحرك الراي العالمي وتطلب لهؤلاء المظلومين الفرصة في محاكمة عادلة .. وترفع صوتك ولا تخشى في الله لومة لائم .. وان لم تستطـع الوقوف في هذا المقام الرفيع فلا أقل من السكوت عن الحق يا شيخ الأزهر .. أما أن تحرض وتعضد الطغيان وتنفخ في صورة المفسدين وتشجعهم على قتل النـاس وتشريدهم وتخمد صيحة الحق اذا انطلقت فلعمري ذلك هـو الضلال البعيد ....

طبعا انت تعرف حقيقة مؤداها ان الشيوعيين قـد تربعوا على عرش الفكر والصحافة وكل شيء في مصر فترة من الزمن .. على اقل تقدير في الفترة التـي القي فيهـا لاخوان في غياهب السجون ...

ويوم صدور بيانك في نفس الصحيفة في الصفحـة الرابعة تحت عنوان : « اعتقال بدون مبرر في جنوب افريقيا

بلغ استهتار حكومة جنوب أفريقيا بالحريات العامة الى درجة أنها اعتقلت امس ايزال هايمان اول شخص يطبق عليه القانون الجديد « تصور يا شيخ الازهر .. شخص واحد فقط » الخاص بجواز اعتقال اي شخص لمدة ١٨ يوما لاي سبب تدعيه الحكومة (تأمل يا شيخ الازهر ١٨ يوما وليس ١٨ شهرا) تقول : انه ماس بالأمن الداخلي .. وقد اعتقل فور الافراج بعد وفاء مدة السجن وكانت التهمة الموجهة اليه هي انه شيوعي (انظر يا شيخ الازهر كيف يتضافر الشيوعيون في انحاء العالم) .

ولا يهمنا بقية الخبر .. كل ما يعنينا انه نشر في نفس الصحيفة وفي نفس اليوم الذي صدر فيه بيانك .. وما كان يليق بك أن تفعل .. فالخاسر والاحمق هو الذي يبيع آخرته بدنياه.. واكثر منه خسارة وحمقا الذي يبيع آخرته بدنيا غيره ... كانت الدنيا تعج بالنفاق والمنافقين عام (١٩٦٥) وكان على الازهر وشيخه أن يبتعدا عن هذه الحلبة .. ولو دفع الشيخ حياته في سبيل ذلك فهو اكرم واتقى واقرب للتقوى ...

....

كانت تلك قصة (ف) واستطردنا منها الى حديث طويل أرجو المعذرة من القارىء ولكني لم أبعد كثيرا عن القصة ...

بجانب قصة صديقنا (ف) هناك قصة صديقنا الآخر (ع) صاحبنا في الزنزانة وهي تبين لنا الوجه الآخر من الفساد .

لقد كنت في التحقيق مع (ف) عندما مزقت السياط جسده .. وعندما أكلت الكلاب قطعا من لحمه وظل آثارها

باقيا حتى الآن .. وكان صوته يتعالى مع نباح الكلاب وعويل السياط وضحكات الضباط ... وفي النهاية اعترف بما لم يفعل ...

اما (ع) فقد قص علينا قصته وعرفنا ان قد اتى نتيجة لاعتراف علي عشماوي عنه انه كان عضوا في تنظيم الاخوان .. وكان علي عشماوي يكاد يكون (شاهد الملك) في القضية فقد روى كل ما يعرف حول التنظيم والاتصالات التي قام بها فقد كان أحد اعضاء اللجنة الخماسية لقيادة التنظيم ..

وذهب (ع) الى التحقيق واعترف اعترافا مفصلا بكل ما يعرفه عن هذه الاتصالات .. وكان من المنتظر أن يحكم عليه بخمسة عشر عاما على الاقل فهذا كان يساوي اعترافه. ولكننا فوجئنا بالافراج عنه بعد حوالي شهر من اعتقاله .. وعرفنا السر ... فقد كان له شقيق يعمل بالمخابرات وعلى علاقة وطيدة بشمس بدران ...

وكان الشخص الرابع شابا فقيرا في العقد الرابع من العمر وكان عضوا بجماعة الاخوان قبل حلها الاول .. عام (١٩٥٤) وقدم للمحاكمة في ذلك الوقت وصدر ضده حكم مع ايقاف التنفيذ.. ثم انقطعت صلته بعد ان أخرج من المعتقل (١٩٥٦) بكل أنواع النشاطات الدينية والسياسية ... وكان يعمل جاهدا ان يحسن امور معيشته بأي وسيلة معقولة .. او غير معقولة ... فرغم انه لا علاقة له بالفن الا انه حاول ان يكون ممثلا .. وجاهد كثيرا من اجل ذلك الا انه فشل فشلا ذريعا بدا لي من كلامه ... فقد كانت تنقصه الموهبة. ولم يستطع سوى الحصول على ادوار ثانوية لا تستغرق

دقيقة او اكثر قليلا على المسرح ... وكان في معظم المسرحيات لا يفتح فمه .. ببنت شفة ...

وغاش بعد خروجه من المعتقل ما يقرب من عشر سنوات من الكد الدائب والكفاح المستمر بلا نتيجة .. فكأنما كان يحرث في بحر .. ونسي كل ما له صلة بالدين أو السياسة ، اللهم الا صلاة الجمعة بين حين وآخر ...

ورغم هذا فقد افاق ذات يوم فوجد نفسه في فم (التنين) محشورا في زنزانة معنا .. وكان عليه أن يثبت انقطاع صلته بكل هذا ... كانت هذه هي مشكلته كما كانت مشكلة الكثيرين الذين ألقت بهم الحظوظ ليروا الحياة من وجهها الآخر .. وجهها الكئيب الكريه في ضيافة سيادة اللواء حمزة البسيوني وغيره من أقرانه ..

كان جمعا عجيبا متناثرا متباين الطباع والمزاج وكان عليه ان يتعايش في سلام داخل عالمه الصغير الذي تمثله الزنزانة التي تهب عليها الريح .. ريح العذاب العبقري في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ...

كنا على اختلاف في الثقافة والميول ونوع التربية والاهتمامات ..

فالاول كانت لذته الكبرى في الصلاة واستعادة ما يحفظه من آيات القرآن الكريم وكنا نشاركه هذا في كثير من الوقت ...

والثاني كان يعيش على ذكرياته الغرامية يقصها علينا ليلا ونهارا ولا يمل تكرار هذه الاقاصيص ...

والثالث كان يلذ له أن يقص علينا أقاصيص كاذبة عن صداقته بعلية القوم والنابهين من الناس ...

اما انا فقد كانت تؤلمني الماساة التي نعيشها ويعيشها الاسلام في واقع المسلمين وكنت مشغولا طوال الوقت في محاولة فهم الموقف ... وكنت اتذكر (جارسيان) الذي قص علينا حكايته سارتر ... والذي كان عنده من الافكار ما يكفيه أن يظل صامتا عشرة آلاف سنة يجتر فيها ذكرياته الفكرية ان جاز التعبير ...

الفصل الحادي عشر

الاستجواب على الطريقة الروسية

مكثت في انتظار التحقيق حوالي اربعين يوما ... ننام على اسفلت الزنزانة وتدخل الينا فئران كبيرة في حجم القطط لتداعب أرجلنا ووجوهنا ... ولم تكن نعبأ بها عدا شخصا جديدا قدم الينا وكان يخاف الفئران خوفه من السياط .. وكان يستيقظ في الليل ويوقظنا ويتوسل الينا ان نبقى معه ساهرين لنذب الفئران عنه .. فكنا نخلع ملابسنا نحاول ان نسد فتحة من الأرض والباب تنفذ منها الفئران .. فكانت تقرض الملابس وتدخل الينا رغم هذا كله ...

كان في الزنزانة قروانة واحدة يوضع فيها الطعام القليل الذي تسمح نفوسهم به ... وكان الافطار عبارة عن شاي وطعمية واحيانا جبن مستورد وحلاوة وعسل أسود وطحينية ...

طبعا لا نأخذ كل هذه الأشياء كلها في الافطار ...
ولكن كل يوم شيء .. عدا الشاي الذي كنا نأخذ نصيبا منه
في كل افطار ...

ثم نأتي للكميات التي توزع .. ففي يوم الطعمية يأخذ
اربعتنا قرصا واحدا من الطعمية ... واذا كانت جبنا فلنا
جميعا منها ربع قرص ... لا يكفي لافطار طفل صغير ..
واذا كان عسلا فهو ملعقة واحدة منه يصب عليها ملعقة اخرى
من الشاي ...

اما الخبز فهو يقذف لنا عند الظهيرة من تحت عقب
الباب .. وهو رغيف ونصف للأربعة طوال اليوم ... ويأتي
وقت الغذاء فيوزع علينا قدر ضئيل من طعام مطبوخ يتغير
كل يوم ... ولم نكن نعرف منه غير الفاصوليا البيضاء التي
كنا نغرم بها لقلتها وندرتها وجوعنا الشديد ...

اما ماء الشرب فكان يمر بنا جندي بعد الغذاء بفترة
طويلة ويفتح باب الزنزانة فننتفض وقوفا فيناولنا ربع كوب
صغير من الماء للاربعه ... وكانت هذه المسألة قاسية جدا
أيام الحر ... ولكننا اعتدناها مع مرور الايام ...

وكانوا يأتون لنا ببعض الفاكهة بين حين وآخر ...
وكانت الكمية ضئيله جدا ... وكنا ننزل الى دورة المياه
مرة كل صباح .. وكنا نعاني من هذا النزول أمر العناء
ونبيت نفكر في هوله طوال الليل ، وعندما يقترب الجندي
المكلف بانزالنا يرتفع وجيب القلوب وتلهج الالسنة بالدعاء
الى الله أن تمر هذه اللحظات على خير .. ففيها خلاصة
الضرب في اليوم والليلة ..

وكنا نعاني معاناة شديدة من الجوع والعطش .. وعند نزولنا الى دورة المياه .. كان غاية ما يتمنى الواحد فينا ان يقضي حاجته بأسرع ما يمكن .. شيء كلمع البرق ان جاز التعبير ... والا فلا يلومن الا نفسه ... ثم مسألة محاولة الشرب .. ويا سعادة من يستطيع أن يعب ولو أقل قدر من الماء ليحتمي به من ظمأ النهار .. وكان البعض يصوم والبعض الآخر يغافل الحرس ثم ينطلق كالقذيفة ناحية الصنابير الموجودة على مقربة ويضع فمه على الصنبور ويفتحه في فمه ويمسك به بكلتا يديه في تشنج ولا يأبه لما يحدث له وهو يملأ بطنه بالماء مثل الجمل ... وكانوا في بعض الاحيان يكتفون بضرب من يفعل هذا ضربا يوشك أن يفضي الى موت .. وفى أحيان أخرى يصر الحرس على أن يتقيأ صاحبنا الماء الذي شربه ... ولا يزالون به حتى يفعل .. ثم نعود خائبا الى الزنزانة قد شج وجهه وكسرت رباعيته ولم يظفر من الماء باقل نصيب ...

ويأتي يوم الاستحمام وهو يوم كالح شديد الكآبة تكثر فيه الاصابات ويسقط عدد غير قليل من الجرحى .. فعلى الواحد منا أن يستحم في أقل من أربعين ثانية .. او خمسين على الاكثر ...

وكنا فى أول عهدنا بالسجن الحربي ... ننزل يوم (الاستحمام) بملابسنا .. ونبدأ داخل الحمامات بخلعها وما أن نفعل حتى يدخلوا علينا بالسياط ونعود وقد غطتنا الدماء .. وكنا نزهد فى هذا الحمام فيوسعونا ضربا ولكما أيضا وبعد هذا كنا نخاطر وننزل وقد تخلصنا من معظم ما نرتدي من ملابس ... ويكون الضرب في هذا اليوم كالمهرجان ...

وكانت الحمامات في معظم الاحيان لا توجد بها مياه..
وكان علينا ان ننقل المياه من البئر القائمة في فناء السجن الكبير في اوعية المطاط المستعملة للبول ... وكان الامر شاقا وبه خطر عظيم ... ونظل طوال ليلة الاستحمام نخطط لوقائع الصباح القريب لينتهي اليوم باقل الخسائر ... ففلان عليه ان يعود باقصى سرعته الى البئر فيملأ وعاء المطاط ويأتي به ليقابله فلان فيأخذ منه الوعاء فيقدمه لفلان آخر .. الواقف عاريا داخل الحمام .. وهذا يستحم بأقصى سرعته ويرتدي ملابسه ويخرج بسرعة ليأتي للآخرين بالماء ... ونظل نحفظ أدوارنا قسطا طويلا من الليل ..

وكان كثير منا لا يستطيعون قضاء حاجتهم عند الذهاب الى الدورة .. فالامر يحتاج الى تدريب من نوع خاص .. وقد اتقنا هذا بعد انقضاء وقت يسير ..

وكان السؤال الذي يسأله كل واحد لصاحبه عند العودة للزنزانة .. هل قضيت حاجتك ..؟ وكم تكون سعادتنا كبيرة عندما نتمكن جميعا من قضاء هذه الحاجة، اما اذا حالت ظروف واحد عن ذلك ـ وكثيرا ما يحدث وكما قلت ـ فهو يدخل الزنزانة كئيبا مكفهر الوجه ونقوم على مؤاساته حتى تشرق شمس يوم آخر .. وقد يصبر حتى اليوم التالي وقد لا يصبر ...

وكان الكلام ممنوعا خارج الزنزانة والويل لمن يضبط يتحدث مع زميله كانت العقوبة مائة سوط .. وهم لا يعدون فتصل في أحيان كثيرة الى خمسمائة .. فكانت التحية لمن يعرفون بعضهم بتحريك الحواجب الى أعلى والى أسفل، الامر الذي يثير ضحكنا عند عودتنا الى الزنزانة آمن مكان بمصر في تلك الايام..

وكان الخروج من الزنزانة معناه الضرب .. وقد يفقد الانسان عضوا فيه من هذا الضرب ... وقد حدث هـذا للكثيرين ... فهناك من فقد عينا وهناك من فقد اصبعا من قدمه بضربة فأس من حارس لا يفترق عن الحيوان الأعجم ...

والشيء الغريب اننا لم نكن نضرب وحدنا .. كان الذين يضربوننا في النهار يقضون ليلهم في عذاب وضرب هم الآخرين ... وكنا نرى ذلك خلال فتحة في باب الزنزانة فيبدأ عذابهم في أول الليل ولا يزالون يضربون حتى يقترب الفجر .. وعندها يرسلون جنديا واحدا ليذهب بأهل ثلاثمائة زنزانة الى دورة المياه .. وعليه ان ينتهي من هذا كله خلال ساعة واحدة .. فينطلق هذا الحارس كالوحش المسعور ويعمل فينا ضربا وفتكا لينتهي من مهمته في الوقت الذي حدد له وغالبا ما يفشل وهو لا يستطيع أن يدعي كذبا بذهاب الجميع الى دورة المياه فهناك من يراقبه وبفشله يقيد اسمه في (طابور الذنب) الذي يقع في المساء ..

وكذلك الذي يوزع طعام الافطار .. عليه ان ينتهي من هذا في ساعة ويفشل ويقيد اسمه في طابور الذنب في المساء ...

وكانوا ينتقمون منا ابشع الانتقام لظنهم اننا سبب شقائهم ..

وكم لمعت أسماء من الجلادين .. زغلول .. سامبو .. الروبي .. النوبي .. وكان هناك من أطلقنا عليه اسم محمدي (المطرقة) تشبيها (بشارل المطرقة) فقد كانت يداه

صماء خرساء والويل كل الويل لمن سقطت هذه اليـد على وجهه .. وهناك الكثير ممن فقدوا حاسة السمع فـي ذلك المعترك الرهيب ...

وكانوا يأتون للسجن الحربي بالجند المتخلفين عقليا .. الذين رسبوا بالاختبارات النفسية التي اجريت لهـم فـي الجيش كالعادة ، فهؤلاء يصعب التفاهم معهم بل يستحيل.

وكان البعض منهم يأتي طيب القلب به فطرة الريف ونقاء خضرة مصر .. وسرعان ما يحوله العذاب الى وحش.

(أحمد ابو ودان) ذلك الجندي الطيب الذي كان يؤدي صلاة الفجر ويدعو لنا ان يخلصنا الله من هذا العذاب ، سرعان ما صار شرسا كالذئب .. واذكر انه حطم علينا بابا من الخشب .. كسره الى الواح وضربنا بـه حتى تفتتت الالواح كلها ...

وقد استطعنا مع مرور الايام ترويض البعض منهم .. فاشتهر فلان بانه يستطيع ان يسوس زغلول ... وهـذا النوبـي .. وهذا ... الا (سامبو) فما استطعنا لـه رغم براعة البعض وذكائهم وزاد الامر سوءا عندما منـح شريطا على كتفه ... فقد صار يتصرف وكانه مونتجمري على مقربة من (سيدي براني) أيام العلمين ..

والحقيقة ان أيام الحربي على قسوتها ومرارتها كانت اجمل الايام واعذبها .. كنا نقضي وقتنا فـي العبـادة والاستغفار وقراءة القرآن ..

وكان كل منا يقـدم خلاصة خبـرته وثقافته الـى الآخرين ...

فمثلا زنزانتنا (٢١٠) كان الطبيب الذي معنا يقدم لنا درسا يوميا في علوم الطب ويدرسه لنا كما درسه بالكلية.. وكنت أقول لهم محاضرة في التاريخ يوميا .. وكان ذاك يحدثنا عن القانون وتاريخ القانون وهكذا ...

واذكر ان زنزانة من الزنازين كان بها صانع احسذية فكان يقدم خبرته لمن معه في أنواع الجلود والحذاء الجيـد وكيف تعرفه وتميزه عن قرينه الاقل جودة ...

وكنا نتذكر وقائع النهار ونضحك عليها شطرا كبيرا من الليل .. واذكر اننا كنا نضحك في بعض الاحيان حتى تكاد جنوبنا أن تنفجر من الضحك .. ونهزأ من كـل شيء مـن أقوال المحققين وطرائقهم في التحقيق والمحاكم الـتي يزمعون انشاءها ... ونحسب نصيب كـل منا فـي الحبس ... ونحمل بعضنا لينظر من نافذة الزنزانة ... فيرى الشارع والمترو وضاحية مصر الجديدة . وينزل وقد امتلأ حسرة على ما جرى في هذا البلد العجيب ..

وكنا لا نعلم شيئا عما يدور في العالم .. لا صحف لا اذاعة ولا زيارات .. ولا شيء على الاطلاق ... ونتسقط الأخبار من أوراق الصحف القديمة التي قد نجـد منها قصاصات بجوار دورة المياه .. وتروج الاشاعات وكـان معظمها غريبا عجيبا لا يمثل الا أماني ذلك الجمع الذي فصل عن الحياة أو فصلت الحياة عنه .

كنت اناقش جميع الاحتمالات عن التحقيق مع زملاء الزنزانة واعصر ذهني لأتصور ما يمكن ان اسأل فيه ...

وكان دخول جندي بيده ورقة يصيب السجن كله بالذعر فهذه الورقة فيها أسماء اشخاص مطلوبين للتحقيق ونظل مشدودين على تلك الكوة التي في الباب خلفه الذي ينظر منها وهو يذيع علينا ما رآه .. وكلنا آذان صاغية وحواسنا في كامل انتباهها .. لقد دخل وهو ينظر ناحية اليمين فنفهم اننا لسنا المقصودين ...

وفي يوم من الايام كان (ف) هو الذي ينظر من الكوة وصار يذيع علينا ما يراه .. لقد نظر ناحيتنا .. انه ينظر الى الزنزانة انه يصعد السلم ... يبدو ان احدا منا سوف يذهب الى التحقيق .

وادركت ان ساعتي قد دنت .. ووقفت منتبها حتى اقترب الجندي وفتح باب الزنزانة ونادى علي .. وفي لحظات كنت أهرول على السلم كما تقضي التعليمات ووقفت بجانب المخزن رقم (٦) ووجهي الى الحائط حتى يستكملوا نداء من يريدونهم للتحقيق ..

وأثناء هذا الانتظار كان بعض الجند يمر ويصفعني كيفما اتفق .. واكتمل العدد .. وساقونا بعدها بالسياط الى مكان التحقيق .. وكان منظرا طبيعيا ليس فيه غرابة ..

وفي المكاتب حيث يدور التحقيق تسمع الصراخ والصياح وصوت السياط يصم الآذان .. وأجلسونا على الارض في مواجهة السور بحيث نسمع ولا نرى حتى يأتي موعد التحقيق ..

وكنا نجلس هكذا حتى يمر علينا نهار وليل ...
وبعدها تكون اعصابنا قد وصلت الى منتهاها من التلف
والتوتر وعندها ندخل الى المحقق ..

وضباط المباحث الجنائية « العسكرية » اكثر استهانة
وعبثا بأرواح الناس ... وقد قتلوا في تحقيقهم اكثر من
ضعف من قتلتهم المباحث العامة .. وفي تحقيقهم يعتمدون
على التخويف أولا ثم الضرب بالسياط حتى يفضي الى الموت
في أحيان كثيرة ، وهم في تحقيقهم يستخدمون الكي بالنار
بواسطة أسياخ مثل التي تشوى عليها اللحوم ويحمونها الى
درجة الاحمرار ثم يطفئونها في أجساد الشهداء ..

وكانوا يستخدمون التعذيب بالكهرباء بواسطة سلك
عاري موضوع أمام مكتب كل ضابط وهو يأمر من يقف
أمامه أن يتقدم ويمسك السلك بيده ويرغمه بواسطة كلاب
البشر وكلاب أخرى مدربة .. وكانوا يستخدمون الكلاب
وندر الذي لم تنهش جسده .. ويضعون الذين يحققون معه
عاريا في المجاري ويرغمونه على الشرب من مائها ثم يخرجونه
عاريا الى الكلاب .. وكانوا يعلقون الذي يضربونه بحيث
يكون راسه الى الارض وقدماه الى السماء ثم تنزل فرقة
الضرب بالسياط وهم اربعة من شياطين الانس .. وسرعان
ما يتلف جلد القدم وتم هذا تحت اشراف ثلاثة من الأبالسة
اللواء سعد زغلول عبد الكريم رئيس المباحث الجنائية
العسكرية واللواء حمزة البسيوني مدير السجون الحربية .
جلاد مصر الاول ... ورئيسهم العقيد شمس بدران مدير
مكتب المشير رجل الحرب المغوار عبد الحكيم عامر ..

ومن مكاني في انتظار التحقيق رأيت الكثير وسمعت الكثير .. رأيت زميلا لي لا أعرفه يدخل الى مكتب التحقيق ويسأله الضابط :

ـ لماذا اعتقلت ؟

ويجيبه الزميل :

ـ لست أدري ..

فيعلق ويضرب بالسياط ثم يعيدونه ويسألونه .. وهو لا يدري وما زالوا به حتى المساء وكادت روحه تزهق . وفي النهاية قال الضابط له :

ـ لقد اعتقلت لانك عضو في الاخوان ..

كان على من يذهب الى هناك (تحقيق المباحث الجنائيه العسكرية) ان يعترف باديء الأمر انه عضو في تنظيم الاخوان السري فيوفر على نفسه علقة الافتتاح ..

ومن مكاني رأيت عربة جيش فارهة تدخل الفناء ويضرب البروجي (نوبة سلام) وينزل منها ضابط عظيم لا ادري أهو عميد أم لواء .. واذا برقيب السجن صفوت يقابل هذا الضابط العظيم بالصفع على وجهه والرجل ينتحب كالطفل فقد فوجيء بما حدث .. ثم ينزعون الرتب من فوق كتفيه ويعلقونه ويجلدونه على قدميه .. ويبدو أنه عاد الى الجيش مرة اخرى فلم اره بعد هذه العلقة ...

ومن مكاني رأيت وسمعت الحاجة زينب الغزالي وهم يجلدونها بالسياط على قدميها وهي ترسل صراخا حادا في الفضاء ...

ومن مكاني رأيت أعجب منظر مر بي في تلك الرحلة .

الضجة تملأ فناء السجن وتدخل شاحنات قد حملت بالبشر وينزل راكبوها فاذا بهم نساء ورجال .. أناس من فلاحي مصر ... واذا بالرجال يأخذون على الارض وضعا على أربع مثل ما تفعل البهائم ثم تركب النساء على الرجال ويهرول الرجال بهن بين فرقعة السياط والعويل والصراخ. كانوا أكثر من خمسمائة رجل على ظهورهم خمسمائة امرأة.

كان مشهدا بالغ الاثارة لا يتصوره أحد وقد لا يصدقه أحد ولكني رأيته بنفسي ..

لقد كانوا أهل كرادسة ولهذا قصة .

***

في الساعات الاولى للتحقيق استدعى الامر القبض على واحد من الاحوان من بلدة كرادسة من أعمال الجيزة.. وشاءت الأقدار أن يكون هذا المطلوب اعتقاله متزوجا من سيدة أراد أحد ضباط المباحث الجنائية العسكرية أن يتزوجها ولكنها فضلت صاحبنا من أهل كرداسة .. واضمر الضابط الحقد في نفسه ... وسنحت الفرصة عندما أرادوا القبض على صاحبنا .. وسعى الضابط لدى رؤسائه ليذهب هو في هذه المهمة ...

وذهب الضابط ومعه من المخبرين اثنان وطرقا باب من يريدون اعتقاله .. فلم يجدوه .. وهنا أمر الضابط بأن يقبض على زوجته رهينة حتى يسلم زوجها نفسه .. وثار الاهالي ورفضوا هذا المنطق .. وتجمع الناس وحدثت

فتنة .. كل هذا والضابط على نفس الدرجة من الاصرار في اخذ تلك السيدة ... ولم يكتف بهذا بل أطلق عيارا ناريا أصاب أحد الفلاحين ... وثار الناس وفتكوا بالضابط وهرب المخبران (1) ..

وبلغ الامر الى المسؤولين وتحركت فرقة من الجيش المصري بقيادة الفريق أول محمد فوزي وحاصرت الدبابات كرادسة واحالوا نهارها الى ليل .. ستة عشر الف جندي من الجيش يحاصرون القرية ... وابيحت القرية للجند ثلاثة أيام .. هتكت فيها الاعراض وقتلت الماشية وبعض الناس .. وفي المدرسة الاعدادية جلد كل افراد القرية تحت اشراف الفريق أول محمد فوزي وكان عمدة القرية آخر من جلد .. ثم جيء بالمشتبه فيهم وكانوا خمسمئة بزوجاتهم واطفالهم ..

هذه القصة سمعتها من أهالي كرداسة الذين قابلتهم في السجن الحربي وأبي زعبل وطره ..

* * *

قال لي احد الضباط مرة وهو يحقق معي .. وكان قد كف عن ضربي لمدة ساعة من الزمن :

ــ ها أنت ترى ان التحقيق أمريكاني .. بينما كل المكاتب تعمل بالطريقة الروسية !!

---

(1) هذه الحادثة شبيهة بحادثة دنشواي التي حدثت عام (١٩٠٦) أيام الاستعمار الانجليزي ولكن الانجليز كانوا أكثر رحمة من سيادة الفريق أول محمد فوزى أحد أبطال النكسة .

كانوا يدعون ان التحقيق أمريكاني عندما يكفون عـن ضربنا فترة يسيرة من الزمن وقد وصفوا طريقتهم بأنها روسية .. والحقيقة ان طريقتهم فريدة في نوعها وتعتبر لا شرقية ولا غربية في فظاعتها وعنفها وقسوتها ..

جرى معي التحقيق مثل ما جرى مع سائر الناس على النحو الذي وصفت آنفا .. ولا فائدة مـن تكـراره .. واعترفت بما لم افعل مثل غيري .. ولكن صدقوني في أن الكثير قد خفي عليهم وما كان لهم أن يعرفوه لا مني ولا من غيري .. وعدنا الى الزنازين أنا ومن كان يحقق معهم مثلي. ومكثنا ننتظر العرض على النيابة ، وقد أخبرنا أهل العلم أن النيابة تحمي المتهم من بطش رجال المباحث والشرطة ... وكنا نظن أنهم سوف ينقلوننا الـى مكان النيابة العامـة . وهناك سوف نخبرهم بالهول الذي تعرضنا له في التحقيق. وكنا نظن انهم سوف ينصفوننا من كل انواع البطش الـذي تعرضنا له ..

وكان يسكن في الزنزانة التـي بجواري رجل مـن الشرقية كنا نطلق عليه عم (أحمد بتاع الكلاب) وذلك لأن الكلاب قد شبعت من لحمه الطيب الطري ..

وفي يوم من الايام رأيت عم احمد وقد اصطبغ لونا ارجوانيا جديدا من الدم وهمست له متسائلا فـي غفلة عـن الحرس :

ــ ماذا جرى يا عم احمد ؟ ظننت انك قد انتهيت من التحقيق منذ مدة ..

ـ نعم ولكني عرضت على النيابة بالامس ..

ـ لا افهم ..

ـ لقد انكرنا كل الاقوال التي قلناها تحت الضغط والتعذيب .. وكان الأمل أن يحمينا وكيل النيابة مما نزل بنا ...

ـ وماذا حدث ؟

ـ لقد ارسل وكيل النيابة الى المباحث العسكرية فجاؤوه بفرقة من الجلادين .. واستمر جلد أهل الشرقية يوما كاملا ...

ـ وكيل النيابة يفعل هذا ؟!

ـ نعم ... وهل هذا غريب ؟

ـ ولكن أين مقر وكيل النيابة هذا ؟

ـ أحقا لا تعرفه ؟

ـ كلا لا اعرفه ..

ـ عندما ترجع من المكاتب الا ترى خياما بيضاء بين المطبخ والمستشفى ؟

ـ نعم ..

ـ في كل خيمة وكيل نيابة ..

ـ من قال هذا ؟

ـ أنا الذي أقوله لك وسوف تذهب بنفسك الى هناك ..

ـ لا أصدق !!! النيابة في السجن الحربي ؟

ـ ما لك تستنكرها هكذا ؟ كأنك لا تعيش في مصر . .
لا يوجد قانون في مصر . .

لا يوجد شيء ... لا يوجد عدا الظلم والطغيان . .

ـ وماذا تنصح يا عم احمد ؟ . .

ـ في أي شيء ؟

ـ عندما أذهب الى النيابة ...

ـ وافق على كل الاعترافات المزورة . . والا . .

ـ والا مـــاذا ؟

وضحك عم احمد بتاع الكلاب وهو يقول :

ـ ما تعرف واعرف يا أخا الكفاح . .

وكانت هذه هي المفاجأة التي هبطت علي مرة واحدة.
وما كان ينبغي أن تكون مفاجأة .

اتخذت معنا بعض الاجراءات ، فمثلا كانوا يأخذوننا على دفعات لكي يأخذوا لنا صورا مختلفة ومعقدة . . ويملؤوا صحيفة سوابق خاصة بالبيانات المختلفة عن الاسم والعنوان وأسماء الاخوة وعناوينهم وكذلك الاقارب من الدرجة الاولى الى الدرجة العاشرة ... وكان الذي ينتظر دوره يـــرى الآخرين يغادرون بوابة السجن الكبير في أول النهـــار ثم يعودون في آخره . . وكل واحد حريص أن يعرف شيئـــا محددا تمثل في التساؤلات التي نلقيها على بعضنـــا البعض عندما نلتقي في دورة المياه .

ـ اهناك ضرب في التصوير ؟

وتكون الاجابة بنعم في العادة ...

ثم صاروا ينتخبون بعض الافراد ممن لا تظهر على اجسادهم آثار البطش من التحقيق فيمثلون أمام التلفزيون. ولكن من يتوقع ذهابه الى حيث يقدم برنامج التلفزيون ليعترف أمام الملايين بأنه مجرم ومخرب ويستحق الموت يهتم بشيء واحد :

ـ أهناك ضرب في التلفزيون ؟

وتكون الاجابة بنعم في العادة ..

وعاد القوم يتساءلون ويستفسرون :

ـ أهناك ضرب في النيابة ؟

واجاب بعض الظرفاء في تبرم من كثرة الاسئلة عن الضرب :

ـ هناك ضرب في كل شيء .. الضرب هو القاعدة.. الا تضربون وأنتم تساقون الى دورات المياه ؟ الا تضربون وأنتم تستحمون ؟ الا تضربون وأنتم تأكلون ؟ ، واراد أن يقول وانتم تشربون فقال وانتم لا تشربون .. فقد كنا في عطش طوال الوقت ..

المهم فتحت الزنزانة في يوم من الايام .. وتوقعنا الشر كالعادة. فالزنزانة لا تفتح الا لشر ... وطالعتنا طلعة جندي جديد .. غريب عن السجن .. وانتفضنا قياما كما تعودنا .. وتقدم الجندي وسأل عني .. واخذني من يدي وما زلت سائرا معه حتى غادرنا السجن ومثلت امامنا المستشفي وكانوا يطلقون عليه (الشفخانه) ولاحت الخيام حيث يقبع داخلها وكلاء النيابة ... وهم لا يقلون ضراوة عن زملائهم ضباط المباحث بنوعيها ..

وتوقف الجندي أمام احدى الخيام .. وفهمت انــه دور النيابة .. وصرت اتلو في سري ما احفظ مــن آيات القــرآن .

وأزاح الجندي ستارا يغطي باب الخيمة والقى التحية واعلم الجالس فيها بقدومي ..

رجل يجلس على مكتب صغير وبجوار شاب آخر .. وهناك كرسي خشبي في مواجهة المكتب (مكتب وكيــل النيابة) ـ كما عرفت بعد ذلك ـ الذي اشار لي بأن اجلس فجلست على الارض .. هكذا كانت التعليمات .. ولكنه اشار الى الكرسي فقمت وجلست عليه في صمت ..

ونظرت الى المكتب فرايت عليه الاعترافات التي كتبتها قسرا وقهرا وعرفتها فهذا خطي وانا اعرفه كما اعرف نفسي وعلى الاعترافات التي كانت هناك علبة سجاير (بلمونت) وكنت أدخن قبل اعتقالي .. أما الآن فأنا لا احصل علــى الطعام فكيف أحصل على السجاير لقد نسيتها كما نسيت أي شيء آخر .. ولكني تذكرتها الآن ..

ـ تحب تدخن سيجارة ؟

هكذا قال لي ..

ـ انــا ؟

ـ نعم .. أنت ..

ـ لا بأس ان سمحت ..

وناولني الرجل سجارة واشعلها فضحكت .

ـ مم تضحك ؟

ـ مم أرى ..

ـ وماذا ترى ؟

ـ أرى التحقيق قد صار اميركانيا ..

ـ ماذا تقصد ؟

فحكيت له القصة .. فارتفعت حواجبه من الدهشة ثم قـال :

ـ أتقصد ان هناك تعذيبا ؟

وفي هذه اللحظة وصل الى سمعنا أصوات صراخ وصياح .. فانفجرت ضاحكا في سخرية بالغة .. وابتسم الرجل وقـال لي :

ـ تحب تشرب شاي ؟

ـ يا المسألة ؟ سيجارة .. ثم شاي . ماذا جرى ؟

ـ ما قلت ... صار التحقيق امريكانيا ..

ثم أمر الجندي أن يأتي لي بكوب من الشاي .. وادى التحية وانصرف .. ثم قال لي :

ـ انت عارف أنا مين ؟

ـ لم يحدث لي هذا الشرف من قبل ..

ـ أنا محمد حسين لبيب وكيل نيابة أمـن الدولـة العليـا ..

وفي هذه اللحظة ارتفعت فرقعة السياط واصوات الصراخ وكأنها تجري خارج الخيمة .. كان احــد وكـلاء النيابة الافاضل يشرف على جلد احد المتهمين .. فوقفت من الدهشة والخوف معا ... ولكنه نظر الي باسما واشار لي بالجلوس :

ــ لماذا وقفت ؟.. اتفضل .. اجلس ..

وجلست .. والتفت هو الى زميله وقال :

ــ نفتح المحضر .. باسم الشعب .. انه في يوم ..، وصار يملي على سكرتيره الديباجة التي تكتب فــي هذه الاحوال .. ثم سألني عن الاسم والسن والصنعة والعنوان. وامسك اعترافاتي وقربها من عيني ثم قال :

ــ تتذكر هذه الاوراق ؟

ــ نعــم ...

ــ خذها وقلبها جيدا .. أهذا توقيعك ؟

نعــــم ..

ــ اتذكر ما كتبته بها ؟

ــ اذكر بعضه .. ولا أذكر البعض الآخر ...

ــ تقصد أنك الذي كتبت هذا الاعتراف ؟...

ــ نعـــم .. ولكن ....

وقاطعني وقد ظهر الشر في عينيه :

ــ ماذا تقصد بلكن ؟

ـ اقصــــد .. اريد ان اقول .. لقد كتبت هــذا الاعتراف تحت ضغط ما تسمع وتعرف ......

وكان صوت السياط يقرقع .. ونظر اليّ ساخـرا ومنــذرا :

ـ اذن فأنت لا تخافها ؟

ـ يا سيادة وكيل النيابة دعنا نتحدث بصراحة ..

ـ هذا ما اريده منك ..

ـ لا يوجــد في هذا الكون من لا يخشى الضـرب بالسياط .... حتى أنت ..

ـ حتى انا ؟!!

ـ نعم فلو لم تكن تخشى هذه السياط لما رضيت ان تقف مني هذا الموقــف ...

ـ ماذا تعــني ؟

انت اداة في يد المباحث العسكرية .. انت تغطـي اجرامهم بثوب قانوني مهلهل ..

وكــان الجندي قد دخل بالشاي وقدمه لـي وادى التحية وخرج .. وانبريت أقول له :

ـ لعلك لم تسمح لي بشرب الشاي بعد ما سمعـت مني ؟

ـ أبدا على الاطلاق تستطيع أن تشربه ..

وكأنما الرجل احس بوخز يسير في ضميـــره ... وشجعني صمته فصرت أقول له :

ـ مـــا ضروره ما تفعلون .. وكلاء نيابة يحققـــون واجور اضافية وورق وحبر ... لم يكن داع لكل هذا .. كان يكفي أن يكتب كل ضابط مباحث عسكرية أو عامـــة العقوبة التي يقترحها على اعترافات كل معتقل وترسل الى رئيس الجمهورية أو لا ترسل لا اهمية لهذه الشكليات .. وفروا المال للدولة ولا تعطونا أملا كاذبا بلا معنى له ...

ـ أتراك تهزأ بنـــا ؟

ـ أبدا والله لا أهزأ .. ما ضرورة هذا المال الضائع والجهد الذي يجب أن يوفر لشيء آخر ؟

ـ هــذا حتى تعلم اهتمام الدولة بأن يكون الامـــر للقانون أولا وأخيرا ... وكان من السهل أن... اسمع... قل لي ...

ـ نعـــــم ...

ـ ما عددكـــم ؟

ـ لا اعـــرف ..

ـ ستة آلاف .. سبعة آلاف ... عشرة الاف ... ماذا يحدث لو قتلتم جميعا عن آخركم ؟

ـ سوف يذكر التاريخ ذلك ...

فقال هازئـــا :

ـ وما أهمية التاريـــخ ؟

ـ ولن يغفر الله لكم أبدا ...

ـ يجب أن تعرف انه رغم استطاعتنا ابادتكم فنحن لا نقبل ذلك .. عندنا قانون.. ونيابة .. ومحاكمة عادلة...

وصرت اضحك واشهد ان الرجل كان حليما معي...

ـ ما الذي يضحكك ؟

ـ ذكرتني بالمحاكمات العادلة .. وبالمناسبة متى سنمثل أمام المحاكم العادلة ؟ قل لي .. أهناك ضرب في المحاكم ؟

ـ الا ترى حلمي معك ؟

ـ ارى يا سيدي .. وهل انكرت شيئا من ذلك .. ولكن الى متى يدوم هذا الحلم ؟

ـ سوف نرى

واستمر التحقيق قرابة العشرين ساعة ... والحقيقة ان الرجل لم يمد يده علي اثناءه ولكنه تجاهل اعتراضي على قيمة الاعتراف ولما أردت ان اثبت بعض الاصابات التي في جسدي بمحضر التحقيق قال لي :

ـ صدقني ... لا اهمية لشيء من هذا بالمرة ..

ثم همس في اذني على مراى ومسمع من سكرتير التحقيق :

ـ سوف يجر عليك هذا الكثير من المتاعب .. ولن يفيدك أدنى فائدة . ولحظتها احسست أن وكيل النيابة مثلي تماما ولا فرق بين مركزه القانوني ومركزي من حيث

انه مواطن مصري .. من المسئول عن هذا الفساد اذن ؟ من الذي يدير عجلة الاجرام في مصر ؟ آلة ضخمة تصنع الفساد والاجرام والطغيان ولها مفتاح واحد .. وهذا المفتاح تحت سيطرة شخص واحد الكل يعرفه ويبجله ولا يستطيع أن يمسه بكلمة سوء ....

كان وكيل النيابة يؤدي عملا يتنافى مع ضميره كانسان ومع وظيفته كمحام عن المجتمع ... وما اظنه راضيا عما فعل الآن .. بعد أن مرت السنون وتضاءل الذين كانوا يصنعون الشر .. وأودعوا مكانا مظلما بعيدا عن الحياة والمجتمع ....

كان وكيل النيابة يضفي ثوبا قانونيا مهلهلا على الجريمة التي ارتكبت ضد الشعب في شخص الاخوان المسلمين بالسجن الحربي .. وقد ادى عمله ببراعة ونجاح ....

وعدت آخر النهار الى الزنزانة العن النيابة والعن القانون والعن .. كل شيء في هذا البلد .... وكان ما يحدث في السجن الحربي عام (١٩٦٥) هو مقدمة طبيعية لهزيمة يونيو حزيران (١٩٦٧) الأمر الذي ذكرنا بقول الشاعر :

اسد علي وفي الحروب نعامة ......

الفصل الثاني عشر

مَابَعْدَ التحقيق

انتهى التحقيق وكان كالقدر علينا أن نؤمن به ونرضى بما قسمه الله لنا فيه واستقر كل واحد فينا في زنزانته ينتظر ادعاء النيابة ليمثل بعدها الى المحكمة ولم نكن نعلم كيف تكون هذه المحكمة .. او اين تعقد ....

ولكن ذكريات محكمة الشعب التي عقدت عام (١٩٥٤) برئاسة قائد الجناح جمال سالم كانت تطاردنا وتؤرق مضجعنا .. وكان عزاؤنا أنهم لن يستطيعوا الحصول على رجل مثل جمال سالم الذي كان يطلب من المتهمين أن يقرأوا الفاتحة بالمقلوب .... وكنا نتمرن على مثل تلك القراءة في الزنزانة .....

ومن أهم الاشياء التي كانت تشغلنا هو محاولة تفهم وضعنا من ناحية القانون .. هل سنحاكم بتهمة العيب في

ذات رئيس الجمهورية ؟ أم سنحاكم بتهمة احداث انقلاب في شكل الحكومة بالبلاد ؟.. وكنا نكفر فلا نجد أن واحدا فينا قد تعرض لشخص رئيس الجمهورية ومن يشاركه الحكم في مصر ...

وبينما نحن على هذا الحال نضرب اخماسا في أسداس كعادتنا اذ فتح باب الزنزانة وكان الوقت ليلا ونحن في نوم عميق .. وانتفضنا مذعورين كعادتنا عندما يفتح هذا الباب .. وزاد ذعرنا عندما علمنا أن الوقت متأخر ..

ومن خلال النور الضئيل الذي ملأ الزنزانة لمحنا شبح جندي يملأ الباب بجسده وسأل عني .. وهنا شمل الزنزانة اضطراب رهيب .. فكوني أطلب للتحقيق في هذا الوقت المتأخر من الليل معناه عدم العودة في أغلب الظن .. وصار كل واحد يخلع ما عليه من ملابس ويلبسني اياه بسرعة ... الوقت شتاء والبرد شديد في الخارج .. وانا اعترض واحاول أن أرد لكل واحد ما اعطاني .. فكل واحد محتاج لما عليه ليواجه برد الشتاء القارس .. أما انا .. فما نفع الجثة بالدفء وما ضرّها بالبرد ؟

ونزلت مع الحارس الى ساحة السجن الكبير !.. الكلاب تعوي .. والحرس يضحكون .. وطبعا لم أعدم نصيبا من الاهانة والضرب والتحقير .. كان التحقيق قد انتهى .. والكل في انتظار الادعاء الذي تعده نيابة امن الدولة .. ترى هل فتح باب التحقيق من جديد ..؟ أم ماذا جرى ؟

اخذوني الى مكاتب التحقيق وافزعني ما سمعت .. كانـــت السياط تفرقع .. والصرخات تملأ المكـــان .. والكلاب تنهش الاجساد .. لقد استبانت الحقيقة المخيفة التي تأكدت لي مع مرور الايام .. التحقيق في السجـــن الحربي لا ينقطع يوما واحدا .... كل يوم هناك متآمرون ضد نظام الحكم .. وكل يوم هناك من يعذبون ويضربـــون وتنهش اجسادهم .. وكان هناك شيء آخر .. لقد كانوا يأتون ببعض كبار الضباط ويؤدبونهم بالضرب ثم يرجعونهم الـــى وحداتهم .. وكذلك كـانوا يفعلون ببعض كبـــار الموظفين .. لقد اتخذ شمس بدران مدير مكتب عبدالحكيم عامر المشير من السجن الحربي مكانا ليؤدب فيه الشعب ممثلا في طوائفه المختلفة ...

في هذا اليوم اجلسوني في مكان مظلم بجوار حجرة من حجرات التحقيق وعلى مقربة مني كان يقف شمـــس بدران يحدث الرائد محمد عبد الفتاح السيسي الذي كان متهما بالسرقة والتهريب باسم المشير ، فقد كان يعمل في مكتبه .. وكم كان في مكتبه من اللصوص والجلادين الذين اساءوا الى مصر ..

ــ اسمع يا محمـــد ...

ــ افنـــدم ...

ــ بكره عندك مجلس عسكري .. سوف تحاكم ..

ــ حاضر يا أفندم ..

ــ لا تضايق المحكمة كثيرا .. اتفهم ؟

ــ حاضر يا افندم ..

ـ سوف يحكم عليك .. بخمسة وعشرين عاما ...

ـ ولكـــن ..

ـ لا تخف .. سوف تبقى بالسجن مدة يسيرة ثـم افرج عنك ..

ـ امرك .. يا افنـــدم ...

ـ اتحب أن تشـعل سيجارة ؟

ـ يا ريت يا افندم ...

وقدم له سيجارة وانا منصت لهذا الحوار العجيب في دهشة بالغة .. ما هذا الذي يحدث ؟..

واقترب مني شمس بدران وسأل أحد الضباط ، فقد كان الظلام شديدا في ذلك الركن الذي اجلس فيه :

ـ مـــن هذا ؟

واجاب الضابط في احترام شديد وسرعة بالغة :

ـ هـــذا فلان يا افندم ..

وذكر اسمي .. واقترب شمس بدران .. وكـدت ارى بسمته الساخرة على جانب فمه رغم تعذر الرؤية ...

ـ كيف حالـــك ؟

ـ الحمد للــــه ....

ـ مبســـــوط .....

ـ الحمد للــــه ..

ـ هل لك رغبة في شيء ؟

ـ الحمد للــــه ..

والتفت شمس بدران الى الضابط الواقف وقـــال له .. ادخله على مكتبي بعد ربع ساعة ..

ـ حاضـــر يا أفندم ...

وابتعدت الاشباح .. وصرت ارنو الى السمـاء .. وقلبي يهفو الى جلال الله سبحانه وتعالى .. فالامر أكبر مـن الدعاء والابتهال .. الله يرى ما يفعل بنا في هـــذا المكان الغريب .. ما من تهمة يمكن أن توجه أكثر من انـي احاول أن أعبد الله وحده على الوجه الذي يرتضيـه ... نحن نحاول ان نضع المستقبل لبلادنا خيرا من واقعها النكد الذي نعيشه .. ونحاول أيضا أن نمد لها الدواء الـــذي اصلح أول هذه الامة .. أمن الصواب أن نكفر بالله لترضى الحكومة عنا ؟ ...... فليفعلوا بنا ما يستطيعون .. ولكني لن أترك عبادة الله ... وأفقت من أفكاري الصاخبة فـي صدري على يد تمس كتفي ..:

ـ هيا قم .... لقد أتاك الموت ..

وعلمت أن شمس بدران قد أذن لي بالدخول عليه .. ترى ماذا حدث ؟ هل جاءتهم معلومات جديدة ؟ سوف نرى بعد قليل ..، ودخلت حجرة شمس بدران لاهثا .. واذا به يطالعني بابتسامة مرحبة :

ـ اهلا ... أهلا ... اتفضل بالجلوس ...

وجلست على الارض .....

ـ كلا .... لا تجلس هكذا .. تفضل على الكرسي ..

وأشار اليّ الى مقعد خشبي في مواجهة مكتبـــه الفاخر القابع في تلك الحجرة المتوسطة الواسعة وظننت أن

هناك خطأ ما .. ولكنه أكد لي بيده المشيرة الى المقعد انه ليس هناك ثمة خطأ ما ... اجلس على كرسي في مواجهة شمس بدران ..؟ ما حدث للدنيا .. وجلست وقد خلا ذهني من أي تصور ... وجاءني صوته من جديد :

ـ ماذا تريد أن تشرب ؟

ترى ما الذي يرمي اليه هذا الرجل ؟ ايقدم الي شيئا أشربه ؟ ولم أستطع الرد عليه ..

ـ آتيك بكوب من الشاي الدافيء ؟

يا اله السماوات !!!! شاي دافيء !!! وتشجعت ..

ـ لا بـــأس ..

وامر شمس أحد الضباط بان يأتي بكوب من الشاي على وجه السرعة .. وهرول الضابط ليصدع بالامر ... وعاودتني نظرة شمس من جديد ..

ـ هل تعرفني ؟

ـ وهل هناك من لا يعرفك يا سيادة العقيد ؟

وجلجلت ضحكته وغطت على صوت التعذيب القادم من بعيد ..

ـ اسمع .. أحب ان أتحدث معك حديثا جادا بعيدا عن التحقيق فأنت تعلم أن التحقيق قد انتهى .....

ـ تفضـــل ..

ـ هل تستطيع الكلام معي بصراحة متناسبا وظيفتي والمكان الذي نجلس فيه الآن ..؟

ـ هذا امر بالغ الصعوبة .. ولكنني سوف أحاول ..

وهنا قدم الضابط كوب الشاي .. وقال له شمس :

ـ قدمه للأستاذ فلان ....

وقدّم الضابط الشاي لي في تودد وبشاشة وهو يكاد ينسكب على ملابسي من فرط عجبي ودهشتي .. وصرت ارشف منه في لذة وسعادة فقد كان الوقت شتاء وما كنا نحصل على شيء ساخن مثل هذا .. وانبرى شمس :

ـ قل لي ما السبب في لجوئكم الى العمل السري ؟

ـ من تقصد ؟

ـ اقصد الاخوان المسلمين ..

ـ ولكني لست عضوا في جماعة الاخوان ...

ـ والتحقيقات ..؟

ـ الم تقل لي نتكلم بصراحة ؟

ـ نعم ..

هذه هي الصراحة اذن .. لست عضوا في جماعة الاخوان .. (كنت اظن أن هناك خدعة) ..

ـ هذا الحديث ليس له صلة بالتحقيق .. ونحن نريد ان نعالج هذه الظاهرة ..

ـ اي ظاهرة ؟

ـ ظاهرة العمل السري ..

ـ انا أقول لك ..

ـ وانــا أستمــع ..

ـ أليس من الغرابة بمكان أن أتحدث معك بصراحة.. أو أن تطلب مني ذلك في مثل هذا المكان ؟.. ألا تستمع الى أصوات الصرخات أليس هذا بأمرك .....؟

ـ ليسوا من الاخوان ... انهم من الجيش ....

ـ انا أتكلم من ناحية المبدأ ..

ـ لقد كنت مضطرا الى كل هذا .. تصوّر نفسـك مسؤولا عن الامن والنظام في بلد مثل مصـر .. ثم جاءت الاخبار بأن الاخوان قد أعدوا خطة لقلب نظام الحكـم .. حتى أعرف الحقيقة ماذا أفعل ؟ لا بد لي من الضغط حتى يعرف الجميع ونفهم أبعاد المؤامرة ..

ـ هذا يجرنا الى الحديث عن التنظيم السري ..

ـ وهذا ما أريدك أن تحدثني عنه ....

ـ أتدري لماذا يلجأ بعض الناس الى أسلوب العمـل السري ..؟

ـ في انتظار اجابتك ..

ـ أنتم تكممون الافواه وتفرضون على الناس نظامـا واحدا أنتم سدنته وأصحابه .. وقد تخطئون .. والنفوس قد جبلت على الحرية ومن الصعب قهرها الى أمد بعيد ..

ـ وضح كلامــك ..

ـ لو كنت تريد اختفاء لظاهرة التنظيم السري فعليك أن تقنع الناس بأن يقولوا في العلانية ما يريدون عمله في الخفاء ..

ـ ماذا تقصد ؟

ـ الا تتصور أن هناك من لا يرضى حكمكم ولا يقبل سيادتكم ؟

ـ هذه هي طبيعة الاشياء .. الناس لا يتفقون على شيء واحد ..

ـ ان كانت هذه هي طبيعة الاشياء فلماذا تقفون ضدها ؟ وهل تنجحون ؟

ـ اريد أن أفهم ما تعنيه بالضبط ...

ـ اعني أنكم لو سمحتم للناس أن تقول ما تريد وحميتم حريتهم في ذلك لن يكون هناك داع للتنظيم السري ..

ـ نسمح بقيام الاحزاب ؟

ـ هذه هي الوسيلة الوحيدة للقضاء على التنظيم السري ..

ـ أتظن أن من اعتادوا على التنظيم السري يرضون بالاعلان عن أغراضهم للناس ؟

ـ ولماذا لا يرضون ان كان القانون سوف يحميهم .. والشيء الصالح هو الذي يبقى ويسود ......

ـ لقد ذهبت بعيدا .. تريدنا أن نعيد الاحزاب ؟

وجلجلت ضحكته الساخرة في فضاء الحجرة التى شهدت موت عدد غير قليل من الناس

ـ هذا هو رايي

والتمعت عيناه وهو يقول :

ـ كيف نرضي عاطفة الناس الدينية ثم نحافظ في الوقت نفسه على شكل النظام ..

ـ لو كونتم شعبة للنشاط الديني تابعة للاتحاد الاشتراكي لكانت هناك فرص لتحقيق هذا الاشباع للجماهير .....

ـ ولكن الا تنفصل هذه الشعبة عن الاتحاد الاشتراكي ...؟

ـ هذا هو بعض الحل .. اما انفصال الشعبة فقد تكون نواة لحزب جديد

ـ حتى ينسى الاخوان ؟

ولم يكمل عبارته بل تشاغل في بعض الاوراق .. ثم عاد يرنو الي من جديد وهو يقول :

ـ اذن فلا فائدة ؟ لن نسمح بعودة الاحزاب ولن ننشيء مثل هذه الشعبة التي تقول عنها ....

ـ ولن تقدروا على منع الاحزاب والمنظمات السرية من الظهور .. سوف تظهر التنظيمات ، تنظيما يتبعه آخر ولن تفلح وسائل القمع والارهاب .... صدقني .. لن يفلح شيء ...

ـ مع من ؟

ـ مع الناس ..

وعدت هذه الليلة الى الزنزانة اقص على اخواني ما جرى وانا دهش مما سمعت ... وكانوا اكثر دهشة مني ....

* * *

مرت بنا فترة عصيبة اثناء التحقيق في الايام التي تلته فقد كنا لا نخرج من الزنزانة الا لحظات في الصباح

لنذهب الى دورة المياه ثم نبقى بقية اليوم .. وكان أقصى ما يتمناه الواحد فينا أن ينزل الى فناء السجن في الصباح ويسترخي في أشعة الشمس الدافئة بعيدا عن برد الزنزانة الذي ينفذ الى العظام ..

وفي يوم من الايام شاهدنا حركة غير عادية في فناء السجن .. دخل حرس كثير وصاروا يفتحون ابواب الزنازين ويخرجون الناس منها ويصفونهم صفوفا .. وكان عجبنا شديدا .. وسرعان ما جاء الى زنزانتنا واحد من الحرس وفتح علينا وامرنا بالنزول ... ونزلنا ونحن في فرحة بالغة .. فلأول مرة يجتمع المعتقلون في صعيد واحد ... وصرنا نتبادل التحيات بوجوه باشة سعيدة ... دون ان ينطق احدنا بكلمة واحدة ...

وصار كل واحد يحاول أن يلقى زملاءه في القضية ليعرف منهم ماذا قالوا عنه ويخبرهم بالذي قال عنهم ... وصار كل يوصي صاحبه بتغيير الكلام في المحكمة عندما تنعقد ... وعرفنا كثيرا من أخبار البلد .. فقد أقال عبد الناصر علي صبري وعين بدلا منه زكريا محي الدين .. رئيسا للحكومة ... وسمعنا شائعات عن اعتقال الجماعة الاسلامية في باكستان ... وسمعنا عن مجموعة الانقلابات العسكرية التي فجرتها المخابرات الامريكية في آسيا وأفريقيا .

وكان يوما رائعا تمتعنا فيه بحرارة الشمس الدافئة واستطعنا أن ندخل دورات المياه مددا كاملة .. وشربنا حاجتنا من الماء .. واعلنوا لنا في آخر اليوم عندما اقتربت الشمس من المغيب أننا سنخرج كل يوم في النهار ولا نعود

الى الزنازين الا في آخره .. وكانت فرصـة ليست بعدها فرصة .. فقد كان هذا غاية ما نتمناه .. وما كنا ندري ما يراد بنا ... دخلنا الزنزانة وكل واحد فينا يحكي لأصحابه عن الذكريات ذكريات اليوم البهيج ..

واذكر اننا قضينا وقتا طويلا مـن الليل في سمـر وضحك في انتظار مطلع الشمس لنخرج من الزنزانة الـى الفناء الفسيح ... حيث الاصدقاء والشمس ودورة المياه. وفي الصباح .. وقبل ان تطلع الشمس بكثير فتحوا علينـا باب الزنائزين وانزلونا الى دورات المياه .. فقد كان علينا ان نقضي هذه المهمة قبل بدء الطابور .. وانتهينا منها قبل ان تشرق الشمس وعدنا الى الزنازين ووزع علينا الافطار الهزيل وبهجتنا اكبر في نفوسنا من الجوع .

وفي تمام الساعة السـادسة والنصف توسط العريف (علي ابو زومه) فناء السجن ونفخ في صفارته ومعناها ان نقف منتبهين داخل الزنازين ـ هكذا علمونا ـ ... ثم نفخ فيها أخرى فنغادر آلزنازين في لمح البصر ونقف ووجوهنا الى الحائط في كل أدوار السجن ... ثم ينفخ أخرى فننطلق مسرعين الى فناء السجن لنقف بالعلامات التي حددوها لنا بالأمس ... كنا نظن أن هذا الامـر سوف يخفف عنـا العذاب ... او أن النزهة وتغير المنظر سوف يجعلنـا اكثر احتمالا .. ولكن خاب ظننا كما ستعرفون بعد قليل ...

وقفنا في فناء السجن وقد قسم المعتقلون الى سرايا بكل سرية حوالي مائة أو اكثر .. وكان أول ما علينا ان نفعله أن نعدو فيما يسموه (بالعدو الصباحي) ...

وبدأ العدو وخرجنا من ساحة السجن الكبير الى الفناء الخارجي حيث المستشفى والمطبخ وسائر الملحقات الملحقة بالسجن ... ومسار العدو في مستطيل حول هذه الابنية ...

وفي هذا اليوم رأيت سيد قطب وهو يتمشى على مقربة من المستشفى رابط الجأش حديد النظرة يسير خطوات متئدة ويرقبنا بين حين وآخر .. عندما ظننا انه لن يأخذ سوى دقائق .. ولكننا لم نعد لا نستطيع العدو لطول الفترة التي قضيناها في ...

وظننا انه في وسع أي واحد منا ان يستأذن ويخرج من الصف .. ولكن كان هذا الطابور طريقة جديدة للعذاب. فعندما سقط البعض هرع اليهم الحرس بالسياط واوجعوهم بها ليقوموا فقام البعض ولم يستطع البعض الآخر .. ثم انتقلت فرقة الحرس الى الصفوف تسوق الناس بسياطها .. والويل لمن يتوقف واستمر الحال على هذا المنوال ساعتين من الزمن عدنا بعدها الى السجن الكبير وصرفونا الى الزنازين ، فقد قدر لنا بعد هذا اليوم ان نتناول طعام الافطار عقب طابور العدو ...

وكنا نسقط على أرض الزنزانة ولا يستطيع واحد منا ان يمد يده الى الطعام من شدة التعب وكان العرق ينضح على اجسادنا رغم برودة الشتاء وفي الساعة العاشرة يتكرر ما حدث في الصباح وننزل الى الفناء وكان من المقرر أن تسير هذه السرايا الطويلة طوال النهار في فناء السجن الكبير .. وما كان يحدث هذا في أغلب الاحيان .

كان حمزة البسيوني يدخل السجن الكبير على جواد أبيض وبروح جماعية يحاول الجميع منافقته فنضج بتصفيق حاد ... ويمتليء ذلك المخلوق غرورا ويأمر الجند بان تعدو هذه السرايا .. ويستمر العدو ويسقط الناس .. ويحاول الجند تملق ضابطهم الكبير علـى طريقتهم فيوسعوننا ضربا بالسياط والبسيوني على حصانه وقد ركبه الغرور ونفـخ الشيطان في روحه .

وكانت هناك سرايا خصصت للمرضى وكبـار السن وكانت معفية من العدو والرياضة العنيفة التي كان علـى غيرهم ان يؤدوها .. وكان يطلق عليها سرية (العواجيز) .. وكانوا يرسلون اليها من يصاب اثناء الطوابير ... ويختارون الذين منوا باصابات جسيمة .

ويشاء حظ هذه السرية العاثر ان يوكل بها رجل ابله كان شهيرا في تلك الايام اسمه (رشاد مفراج) وكنت قـد التحقت بهذه السرية عقب اصابتي في قدمي اصابة بالغـة تمنعني حتى من السير .. ولكن ليتني ما اصبت وليتني لم التحق بهـا ...

كان (مفراج) يجعل هذه السرية تعدو وقتـا اطول من بقية السرايا التي بها أصحاء وكان يضرب مـن يرفض العدو ضربا مبرحا قائلا وكان يصرخ فينا ــ يا عواجيز يا ابناء العاهرات ــ .. سوف أقتلكم جميعا .. وكاد يفعل والله ...

وكنا نعود الى الزنزانة في المساء وقد أضنانا التعب وهدتنا آلام مبرحة .. ويصير اليوم التالي كابوسا لا نحب

ان ياتي .. ويدخل الواحد منا ولا يكلم احـدا من زملائه من هول ما به ... وان ضبط واحـد يتحدث مـع آخـر فيمسكون بهما ويجعلونهما أمثولة ... ورغم هذا كنا نتكلم وما منعنا الضرب من فعل اي شيء ..

كانت الابرة محرمة وكذلك الخيط .. فكنا نحتـال لنخيط ملابسنا الممزقة .. فنسحب خيطا من نسيج الثوب وشبوكة من اشواك السمك الـذي كانوا ياتوننا بـه احيانا ونخيط ما نريد ...

ويمر العريف في طابور الصباح فيكتشف ثوبا مخيطا فيخرج صاحبه ويسأله كيف فعل ذلك فيحكي له القصة فلا يصدق فينهال عليه ضربا موجعا قاتلا... كانت الطوابير وبالا ونقمة علينا ولولا اننا استطعنا فيها أن نسترد طعامنا الذي يسرقه الجند لما قدر لنا أن نظل أحياء على النظـام الذي اجروه معنا في صور التعذيب الجديدة من خلال الطوابير . كانوا يسرقون الجبن فنسترده منهم كذلك اللحـم والخبز والحلاوة والطحينية والعسل الاسود ويتخصص افـراد معينون في أصناف الطعام المختلفة فهذا اختصاصي فـي استرداد الجبن ... وذلك الخبز .. وآخر اللحم وهكذا.. ويحاول كل واحد ان يوزع أكبر قدر من المواد التي استردها على اخوانه ويختص المرضى والشيوخ بأكبر نصيب .. وكانت روح الجماعة ظاهرة في نفوس الاخوان فـي السجن الحـربي ...

كل واحد يحب من معه ويحرص عليهم ويفديهم بنفسه اذا اقتضى الامر ... مر احد الجند على السرايا فسمع همهمة فيها فأمر من تكلم بالخروج فلم يخرج أحد .. وكان

الذي تكلم شيخا كبيرا طرد قريبا من سرية العواجيز وخاف ان يخرج فيبطش به الجندي وهو رجل ضعيف فسكت ولم يخبر عن نفسه ..

وهدد الجندي بانه سوف يمثل بالسرية اذا لم ندله على الذي تكلم وكان معظم من بالسرية يعرف ذلك الذي تكلم ولم يشي به أحد .. واستمر الجندي يمثل بنا في هذا اليوم .. من الظهر حتى غربت الشمس ... ولم ينطق احد باسم الذي يبحث عنه الجندي ..

في أثناء الطوابير التقينا بكل من كانت له صلةبالتنظيم وعرفنا الكثير من الاشياء التي خفيت علينا .. التقينا بعبد الفتاح اسماعيل عليه رحمة الله واحمد عبد المجيد عبد السميع وغيرهم وغيرهم ...

الفصل الثـالث عشر

القانون والقضاء في إجازة

من الاشياء الطريفة التي تتعلق بقضية الاخـوان ان قرار الحاكم العسكري الذي صدر عام (١٩٥٤) بحل جماعة الاخوان المسلمين لم ينص على عقوبة معينة لمن يخالف هذا القرار ، وعلى هذا لا يعد مخالفا للقانون من عمل على احياء جماعة الاخوان بعد عام (١٩٥٤) فلا جريمة الا بنص كما يقول جملة الفقهاء والمشرعين ... ولم يكن هذا بالامر المعجز .. فكل الاجراءات بربرية منذ لحظة اختطاف المواطن من بيته حتي تقديمه لمحاكمة هازلة مرورا بسلخه قبل ذبحه .. ان جاز هذا التعبير ...

ولقد شكلت المحكمة (محكمة أمن الدولة العليا) برئاسة الفريق محمد فؤاد الدجوي ، وهو رجل سكير كما قالوا من عرفوه ... جاهل مغرور وقح كما بدا فيجلسته على منصة القضاء الزائفة ... والقاضي كما عرفه الناس رجل عـادل

متجرد هادىء النفس يزن الوقائع بصـدق ويحرص كـل الحرص على عدم الخطأ في العقوبة .. وهو ملاذ الناس عند الشـدة وهو الحائل بينهم وبين العنت والقهر .. أما هـذا فكان قميئا يحاول تقليد سلفه جمال سالم والمهداوي فـي العراق .. ولما كانت تنقصه القدرة والاستطاعة فقـد بدا مقززا يثير الغثيان ... حتى النكات السمجة التـي كان يطلقها أثناء نظر القضية لم تكن تلقى اهتماما ومجاملة مـن الحاضرين وجملتهم من جماعة (المصفقين) ..

ولست أدري لماذا تحضرني ذكرى اغتيال عمـر بن الخطاب العظيم في الزمن القديم .. فرغم ثبوت التدخل من بعض الاشخاص والتواطؤ مع ابي لؤلؤة فيروز المجوسي قاتل أعظم الناس بعد وفاة صاحبيه الا أنه لم يكن هناك مـا يمكن عمله معهم .. فقد كان يمكن للخليفة الجديد ان يصدر قراره باعتقال المجوس الموجودين بالمدينة وقد اسلم بعضهم نفاقا الا أن هذا لم يكن في ميزان الدين والشرع وفي ضمير الحضارة والقانون ...

وفي الزمن الحديث كانت هناك قصة اغتيال جـون كندي أكبر رؤساء الجمهوريات في العالم فما كان هناك غير اعتقال ازواد الذي اطلق الرصاص على الرئيس ... وقالوا ليس هناك نص يخص رئيس الجمهورية... فهو رجل عادي من الناس بالنسبة لهذه النقطة ... من القانون .

بدأ الدجوي اجراءات المحاكمة بتأنيب المتهمين على ما اقترفوه في حق سيده من آثام .. الامر الذي اثار دهشة المحامين .. فكأنه بهذا قد وافق النيابة المتهرئة على دعواها. حيال هؤلاء الناس .. وكان كل ما يدور لا قيمة لـه ... فالقاضي يؤنب المتهمين .. والمفروض أنهم أبرياء حتى تثبت التهمة من اجراءات المحاكمة ... او لا تثبت ...

وقد يكون من التكرار أن نعيد ما جاء في المحاكمات فقد حفلت بها أوراق الصحف في ذلك الحين ولكن هناك امورا لم يقدر لها النشر فلعله يكون مفيدا أن نعرض لبعضها فهي خواطر وظلال.. حول المحاكمات التي جرت والقوانين التي سادت .. قضية خطاب من اشهر القضايا التي قدمت آنذاك ... فقد اتفق خطاب ـ وهو من اخوان الاسكندرية ـ على اغتيال عبد الناصر .. انتقاما لما حدث سنة (١٩٥٤) واعد العدة لاغتيال عبد الناصر هو وبعض زملائه .. وبعد مناقشات عديدة استقر الامر بينهم على استبعاد فكرة الاغتيال هذه .. والانصراف الى العمل الجاد .. من أجل خير الوطن ورفعة شانه في تكريس الاخلاق والقيم الاسلامية في صفوف الشعب .. كل مع من يعرفهم من زملائه في العمل وجيرانه في السكن وأقاربه وكل من يمت له بمعرفة ما ... دون ما احتياج الى تنظيم ...

وعلى هذا الاساس فقد خرجت زوجة خطاب ومعها شقيقتها في ليلة من ليالي الشتاء عام (١٩٥٦) ومعها المعدات الخاصة بنسف قطار عبد الناصر ... وألقت هذه المعدات في البحر الابيض المتوسط .. واسدلوا على القصة ستائر النسيان .. ففي منطق القانون العادي يسمى هذا عدولا اختياريا عن الجريمة .. فقد اتفقت مجموعة من الناس على قتل واحد بعينه .. وتم هذا الاتفاق .. ثم عدلوا عن هذا ... وانتهوا الى الغاء هذا الاتفاق ... ولكن خطاب وزملاءه قدموا الى المحاكمة بتهمة الشروع في قتل عبد الناصر ... وحكم عليه وعلى مجموعته بالاشغال الشاقة المؤبدة ... رغم انهم عدلوا عدولا اختياريا كما قلت .. وكانت شقيقة زوجة خطاب فتاة لم تتزوج بعد في ذلك اليوم الذي صحبت فيه اختها لالقاء المعدات في المتوسط . ومرت

الايام وتزوجت بعد ذلك .. وعندما اتى أوان القضية عام (١٩٦٥) جاءوا بها .. وجاءوا بزوجها المذهول .. الذي فهم القصة بالتفاصيل في عنابر التحقيق المخيفة .. ثم فهم الامور كلها على مدى السنين التي قضاها في المعتقل دون محاكمة .. بطبيعة الحال ..

اما قضية اغتيال عبد الناصر في حد ذاتها فمن سير التحقيق بصحيحه وكذبه لم يثبت ان هناك من ذهب ليقتله .. فغاية ما يفهم أن هناك شخصا فكر في قتل زيد من الناس ... فصدر الحكم ضده بالاعدام ونفذ .. فهو قانون غريب وقضاء أغرب .. يحكم على الناس حكما قاسيا مدمرا بخلجات نفوسهم وبما يدور في عقولهم من أفكار ... وقد عبر عن هذا حسين توفيق أثناء محاكمته بقوله لرئيس المحكمة :

ــ لو كنا قد فكرنا في انقلاب ضد السماء لما فعلوا بنا ما فعلتموه .. وقد ذهب ضحية التحقيق الوحشي الذي إجرته أجهزة الأمن تمهيدا للمحاكمة اكثر من خمسين رجلا من خيرة الناس أعرف منهم شخصيا : المرحوم زكريا المشتولي .. المرحوم بدر القصبي .. المرحوم احمد شعلان .. المرحوم محمد عواد .. المرحوم أحمد اسماعيل الفيومي .. من هؤلاء من قدر لي أن اشهد استشهادهم كما حدث مع المشتولي والقصبي وشعلان او احضر جانبا من هذا الاستشهاد كما حدث مع عواد والفيومي عليهم رحمة الله جميعا ... أما ضحايا المحكمة الذين استشهدوا على مرأى ومسمع من الناس فقد كانوا ثلاثة فقط .. سيد قطب العالم الشهيد ... والشيخ عبد الفتاح اسماعيل .. والاستاذ محمد يوسف هواش ..

* * *

كانت المحاكمات اشبه ما تكون بتمثيلية صاخبة هزيلة في نصها .. سخيفة في اخراجها يشاهدها جمهور فقد كرامته وعزته . سلبها منه نظام خانق مقتدر على الافساد داخل الارض .. ضعيف أمام العدو (اسد علي وفي الحروب نعامة) كما يقول الشاعر ... وقد مثل الشبان الشجعان المؤمنون وفي قلوبهم صلابة ورباطة جاش ... وكانوا يعرفون ما يخاله بهم وما يراد منهم . وقد ضربوا امثلة صادقة وفية ... ورضوا بالقضاء وصبروا عليه وواجهوا المهزلة .

تكلم سيد قطب أمام الدجوي الممثل الهزلي الضعيف الأداء .. وقد ارادوا له القيام بدور القاضي العادل الحكيم وهذا يستدعي قدرا من الحكمة يساعده على اداء الدور .. ولكنه كان خلوا من هذا القدر الضئيل .. تكلم أمامه سيد قطب .. رغم مرضه وسنه الا انه قال للدجوي ما يعتقد ـأمام صحافة اقل ما يقال عنها انها صحافة حقيرة مرتزقةـ تكلم عن التعذيب الوحشي الذي تعرض له المتهمون .. فكان رد الفعل في القاعة نظرات التشفي وقهقهات السخرية من القاضي والجلادين والهتافين .. وكان يعرف مصيره ..

وفي مرة من المرات أخذوني مع بعض من الزملاء لنحضر الطعام من المطبخ . وفي الطريق سنحت فرصة للتحدث مع سيد قطب قلت له فيما قلت :

ـ ماذا تنتظر ؟

فقال الرجل لي بابتسامة واثقة نابعة من صدر هادىء مطمئن ..

ـ انتظر الوفود على ربي ..»

هذا كل ما كان ينتظره .. اما ما قاله في المحكمة فكان يريد به ذكر شيء للتاريخ الـذي مسخه الاقزام .. والذي يأبى الا ان يشرئب بعنقه مهما تباعدت الازمان ..

* * *

كان للدجوي رئيس المحكمة تاريخ لا يشرفه.. وليس في تاريخه ما يشرفه ، كان حاكما لقطـاع غزة المحتـل أيام الاحتلال اليهودي لها عام (١٩٥٦) وكان غرض اليهود آنذاك هو تهجير المصريين والفلسطينيين من القطاع ليسهل لهـم تهويده ... وساعدهم الفريق الهمام في ذلك ... وصار يحث المصريين والفلسطينيين على مغادرة القطاع .. ثم صار يخطب في الاذاعة الاسرائيلية ويبين عورات الحكم في مصر. وقد وصف نفسه بأوصاف قبيحة يندى لها الجبين ... وقد وقف امامه وتصدى له محمد المأمون الهضيبي قاضي محكمة غزة في ذلك الوقت واستطاع مع بعض المخلصين أن يفسد خطته وأن يحول بين اليهود وبين تحقيق ما يريدون .

وتمضي الايام ويمثل القاضي الحقيقي متهما أمام قاض مزيف وقح العبارة أمي التفكير .. واثناء الحوار الهازل الذي ارغم عليه المتهمون .. ضرب القاضي المزيف بيده على المنصة وهو يواجه القاضي الحقيقي الشجاع متهما فـي قفص الاتهـام :

ـ هكذا يقول القانون ..

وفي هدوء رد عليه المأمون الهضيبي المستشار :

ـ من قال لك هذا الكلام ؟

ـ انا قاضي وعارف كويس ما يقوله القانون ..

وابتسم المأمون ابتسامة مريرة ساخرة وهو يقول :

ـ يا سيادة القاضي . ليس في كلامك هـذا شيء من القانون .. واخفى المحامون ابتساماتهم في أكمامهم وهـم يرون النقط تحت الحروف ...

* * *

كانوا يهتمون بمظهر الذين يحاكمون .. فياتون لهـم بالملابس النظيفة من بيوتهم .. فيأمرونهم فيلمعون أحذيتهم . وكنا نتفرج على منظرهم خلال الزنازين ونعجب من اناقتهم ومن نظافة ملبسهم ... وكنا نغبطهم أيضا على نزهتهم في الرواح والغدو مرورا بشوارع القاهرة التي لا تدري شيئـا عما يدور ...

ومن طريف ما يروى أن أحد المتهمين وهو منصور عبد الظاهر .. وقف أمام القاضي المزيف وخلع ملابسه واراهم ـ هيئة المحكمة الموقرة ـ ما نزل به في ساحة العذاب .. وبطبيعة الحال لم يلتفت القاضي المزيف لما يقـوله منصور ومضت الاجراءات الى نهايتها وعادوا الى السجن الحربي حيث يقيم الجميع ... وعلى بوابة السجن امـروا بخلع ملابسهم وحملوها على ايديهم .. وفرقعت السياط وعوت الكلاب وساقتهم الى السجن الكبير .. على النحـو الذي شرحت في مبدأ الكلام .. وانتبهنا في الزنازين علـى تلك الضجة العظمى فنظرنا ورأينا ... ويا لهول ما رأينا .. كان يمثل بهم أشنع تمثيل .. اما ذلك الذي تجرأ فـي المحكمة

فقد ناله من العذاب الكثير أعظم نصيب .. فقد ازرقت عيناه وانتفختا من هول اللكمات وشج راسه وناله جزاء الصابرين المعاندين ...

وفي اليوم التالي ذهبوا الى المحكمة كالعادة . ورآهم كل الناس على الحال التي وصفت وشرحت ... وامعانا في الاستهزاء والسخرية قال القاضي المزيف :

ـ فين منصور عبد الظاهر ؟

ووقف منصور في القفص بين اخوانه .. ووقف وفي وجهه ما قلت لكم ولكل من يراه بوضوح :

ـ أفنـدم ..

ـ ماذا بعينك ؟

فتحير منصور . القاضي الجلاد يسأله عما في عينه!! وحملق منصور فرأى عيناه تلمعان بالسخرية والتحدي .. والصحافة جالسة والله العظيم .. فقال له بهدوء :

ـ لا شيء ..

وازدادت الروح الشيطانية في نفس القاضي وكـان يمكن أن ينتهي الحوار عند هذا ، الا أنه اضاف :

ـ ماذا تعني بلا شيء ؟ وجهك مصاب .. وعينـك منتفخة .. هل ضربوك ؟

وارتعد منصور فقد تذكر ما حل به البارحة في ساحة السجن الكبير . فأسرع قائلا :

ـ لا ... لم يضربني أحد ...

ـ فكيف تفسر ما بوجهك من سجحات وكدمات ؟

ـ في الحقيقة لست أدري ..

ـ الا تعرف ما حل بوجهك ..؟

ـ وازدرد منصور ريقه وهو يقول :

ـ نعـم ..

ـ استيقظت من النوم فوجدته هكذا .

ـ نعـم

ـ أم لعلك سقطت على السلم وأنت تصعد أو تهبط ؟

ـ ربما .. لا أذكر ..

كل هذا والحاضرون الجبناء من صحفيين ومحـامين يضحكون ويهمهمون في سعادة كمجتمع روماني يشاهـد الاسود وهي تلتهم النصارى في الزمن القديم .

* * *

كان رئيس الدائرة الثانية الفريق علي جمـال الدين محمود .. وكان رجلا صالحا طيب النفس ولا أدري كيف اختاروه لهذه المهمة القذرة .. أما الرجل فقد كان صادقا مع نفسه .. وآلى ان يحق الحق ويفعل ما يراه منسجما مع ضميره وخلقه .. فكان يفسح صدره للمتهمين ويسمع منهم ويسـألهم :

ـ هل عذبوك ؟ قل الحقيقة لا تخف ...

ولكن بعد حادثة منصور ما كان لأحد ان يقول الحقيقة ... وكان اذا ما راى علامة في وجه واحد من الاخوان يسأله عنها وكيف أصيب بها .. ويصر على ان هذه من التعذيب .. ويصر المتهم انه عومل أحسن معاملة .. واستقر راي الرجل على تبرئة كل المتهمين .. وكانوا يأتون من المحكمة ويقصون علينا الانباء فلا نصدق ونقول لهم انتم مبالغون ..

وقبل الجلسة التي عزم الرجل فيها ان يعلن براءة الناس .. جاء نعي الفريق علي جمال الدين محمود في الصحف الثلاث .. وقيل ان صلاح نصر مدير المخابرات قد دس له السم في الطعام ... واعيد تشكيل المحاكمة وجاءوا برجل اسمه اللواء حسن التميمي استاذه الدجوي .. وانسجمت القضية الثانية مع باقي قضايا الاخوان ...

* * *

كان معي في الزنزانة طبيب شاب .. جلس يناقش مع اخواننا ليلة ذهابه الى المحكمة ما ينبغي عليه أن يقوله في الصباح ... وصاروا يناقشون معه وقائع الاحداث وتفاصيل الاقوال وهذا يقول له قل كذا وكذا .. وذاك يقول : عليك بانكار هذه النقطة .. وانا صامت لا اتكلم .. واقترب أخونا الطبيب الشاب وقال لي :

– لم تقل لي ما ينبغي علي أن أفعل في الغد ...

– لا تفعل شيئا ..

– ماذا تعني ؟

ـ رفعت الاقلام وجفت الصحف . أرح نفسك في الغد واجلس صامتا في القفص ومتع نفسك برؤية هذه المسرحية الهازلة ...

ـ والله هذا هو القول .

واخلد صاحبنا ليلتها في سبات عميق ..

* * *

دخل الاخ حافظ أيوب الى قاعة المحكمة وافترش عباءته على الارض وصلى ركعتين ولم يأبه بصوت الحاجب وهو يعلن بأعلى صوته منبها الموجودين :

ـ محكمة ...

وعندما سئل السؤال التقليدي :

ـ هل لك اعتراض على شكل المحكمة ؟

اجاب الرجل بصوت جهوري سمعه كل من كان في القاعة ...

ـ اني أعترض على شكل المحكمة وموضوعها .. فليس لي أن أحاكم بقانون وضعه البشر ... فالحكم لله تعالى .. والفيصل بين الناس هو شرع الله .. وعندما سئل عن رايه في الحكومة اجاب ببساطة :

ـ هي حكومة كافرة ...

وكذلك كان حال معظم افراد القضية الثالثة .. أعلن كل واحد اعتراضه على شكل المحكمة وموضوع القانون الذي يحاكم به ... واعترف انه ضد النظام ... ويقاومه بكل ما

يستطيع .. وكانوا يعودون من المحكمة الى السجن حيث العذابه والضرب والارهاب البالغ وكانوا على أشجع ما يكون الناس فقد راوا ما كان من امر اخوانهم الذين لم يحسنوا القول في ساحة القضاء وتبين لهم كيف فعل بهم وضربت لهم الامثال ...

* * *

وقف المحامي الشاب يدافع عن صديقنا الصيدلي الشاب .

ـ ياحضرات القضاة .. هذا الوجه الذي ترونه الآن ـ ويشير الى صاحبنا الذي يدافع عنه ـ وجه قد تمرس بالاجرام . صحيح أنه لم يولد كذلك ... ويعارضه القاضي ليبدي شيئا من النزاهة :

ـ يا أستاذ دع هذا الكلام للنيابة ...

ويمضي المحامي في مرافعته ناعتا صاحبنا بالاجرام والتآمر .. ولست أدري كيف ظن المحامي ان هذا دفاع ؟ ويصفر وجه الصيدلي الشاب ثم يهدأ ، ويبتسم وتتسع ابتسامته حتى تملأ وجهه ثم ينفجر في ضحكة ساخرة مجلجلة مريرة ... بينما يد القاضي غير النزيه تدق بعنف على المنصة ... وعندما انتهت الجلسة همس الصيدلي لوالده من القفص :

ـ كم اعطيت هذا الرجل ؟

فقال له الاب المكلوم :

ـ ثلاثمائة من الجنيهات ...

وابتسم الصيدلي وهو يقول لأبيه :

ـ كان يمكن لوكيل النيابة أن يقول هذا دون نقود ..

* * *

كان الشيخ عبد الحليم سعفان أعمى العينين بصير القلب .. وكانت تهمته انه يساعد أسر الاخوان الفقراء بقليل مما تسمح له ظروفه .. وكانت المحكمة في حالة تسامح شديد .. وقد عبرت عن ذلك بأنها عرضت العفو عن المتهم اذا ما أعلن عن ندمه وخطئه وطلب العفو من المحكمة ... ولكن الرجل قال لهم في عزة الواثق وصدق المؤمن :

ـ كيف تطلب مني أن اعتذر عن عمل قمت به من صميم الدين .. الزكاة من اركان الاسلام ولا يعتذر عنها .. واذا فعلت فكأنني أخرج من الاسلام .. وحاشا لي أن افعل .. وصدر الحكم عليه بثلاث سنوات جاء بعدها الى المعتقل ومكث به ما شاء الله أن يمكث ...

* * *

كانت المحاكمات صورية بالشكل والمضمون كما بينا .. وكانت غطاء للجرائم التي ترتكب وصورة للعالم الخارجي ليظن العدل بطرائق الحكم فى مصر ... أما الحقيقة فقد كانت الاحكام تصدر من مكاتب المباحث الجنائية العسكرية تحت اشراف العقيد شمس بدران واللواء سعد زغلول عبد الكريم .. ولم يتوفر لاحد أمان في اي شيء .. حتى لم

يستطع أن يقابل أهله ويجلس معهم ويتناول شيئا من طعامهم الذي يحملونه كل يوم ويأخذه الحرس بحجة أنهم سوف يوصلونه لأبنائهم ...

ولم يكن هناك قانون اللهم الا نصوص عرجاء عليها مسحة من صياغة القانون ومن الطريف أن هناك واحدا من المتهمين قد حكم عليه بثلاث عشرة سنة .. كأنه قد أخذ عقوبته بدقة وعدل ووضوح ... وكان أجدر بالقاضي الا يحضر مثل هذا الهراء .. وعلى النيابة ألا تكتب مثل هذا الادعاء . وكان خليق بالصحفي الصادق أن يحطم قلمه ويرفض الجلوس في مقاعد السفهاء ..

وكان على عصام الدين حسونه وزير العدل آنذاك أن ينأى بنفسه عن مثل هذا بدلا مما قاله في زمن أتى (١) بعد ذلك . فقد كانت كل القرارات تصدر موقعا عليها باسمه ولو وضعنا النقط فوق الحروف لسمي الرجل وزير الظلم بدلا من صفة العدل التي أطلقت عليه بغير حق ..

* * *

انتهت المحاكمات وبقي الجميع في انتظار الحكم .. وكان الكل يعيش في طاحونة الطوابير القاتلة تحت حرارة

---

(١) تقدمت مجموعة من اعضاء مجلس قيادة الثورة القديم وبعض الوزراء منهم عصام الدين حسونة هذا بمذكرة الى الرئيس أنور السادات بتاريخ ٤ ابريل سنة ١٩٧٢ ، يعرضوا فيها بالظلم الذي وقع على الشعب وكبت الحريات وضياع القانون أيام عبد الناصر ويقولون له فيها ... ان هذه هي اسباب نكسة يونيو (١٩٦٧) ويطالبون بتحقيق العدل والديمقراطية واشياء اخرى منها الاشتراك معه في الحكم واعادة مجلس الثورة من من جديد .

الشمس المحرقة لصيف انى*غاضبا مزمجرا لا يفرق بين الظالم والمظلوم .

وفي يوم من الايام دخل المساعد صفوت واطلق صفارته فتوقفت الآلة عن الدوران . وتليت قوائم . لقد تقرر نقل المعتقلين الذين لم يقدموا للمحاكمة الى معتقل آخر واخذونا صفوفا الى (الشفخانة) لتوقيع الكشف علينا ...

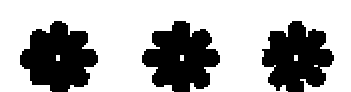
واشاعوا ان من يجدونه مريضا او به اذى من التعذيب فسيبقى بالسجن الحربي حتى يشفى ... فكان كل واحد يبدي قوة من نفسه امام الطبيب الجبان الذي راى كل شيء دون أن يتذكر قسم (ابو قراط) .. او تتحرك في نفسه خلجة من الشعور يعترض فيها على ما يرى من عذاب ...

اني اذكر ايام التحقيق يوم أن أتوا بذلك الطبيب ليفحص شابا فقد رشده من شدة الجلد بالسوط . لقد وضع الطبيب السماعة على قلبه ثم التفت الى المحقق وقال له :

ـ قلبه سليم .. يحتمل (علقة) اخرى ...

خرجنا من السجن الحربي لنواجه الحياة في معتقلات المباحث العامة .. القلعة فأبي زعبل .. حيث حدث هناك ما حدث .. ثم المستقر والمستودع بمعتقل طره السياسي. وبخروجنا من السجن الحربي انتهى عهد التعذيب والضرب. وبدأ عهد آخر لم يستخدم فيه السوط ولم يكو أحد بنار .. ولكننا كنا نتذكر بعد ذلك أيام الحربي فنترحم عليها ونتمنى لو كانت دامت لهول ما مر بنا من أحداث وخطوب بعد ذلك فاقت في ضراوتها الكي بالنار والضرب بالسياط ...

اما هذا الحديث فشرحه يطول ... في كتاب آخر ان شاء الله ..



المحتــوى

مطابع المختار الاسلامى
دار السلام

اخي القارىء : ان هذا الكتاب الذي نقدمه اليك وثيقة اتهام خطيرة لا تدين نظاماً بعينه بل تدين جيلا بكامله .. لان النظام لم يقو على ارتكاب هذه الفظائع إلا بعد ان استخف بالانسان على الخريطة العربية كلها .

ومن العجيب المخجل ... ليس للنظام فقط بل للجيل بأكمله ... ان ترتكب كل هذه الفظائع تحت شعار الحرية . واليوم وبعد ان تكشفت عيوب ذلك النظام الى درجة الفضيحة هل استطاع المواطن العربي ان يصل الى مرحلة الوعي بحيث لا يسمح للجريمة ان تتكرر من جديد ..؟!

وان اولئك الذين بغى عليهم الجلادون رفضوا الظلم واعلنوا الرفض بكل شجاعة وإباء هل هم قادرون على الافادة من التجربة المرة ليأخذوا بيد هذا الشعب الذبيح على يد اولئك الطغاة الذين انكشف امرهم وبانت عورتهم وهل ايقن الشعب أن الدواء الناجع للخلاص هو نبذ كل الشعارات والمبادىء التي ازكمت الانوف بعد التجربة القاسية وان السبيل الوحيد للعزة والكرامة هو طريق الاسلام والاسلام وحده .

اما مؤلف هذا الكتاب فهو واحد من بين عشرات الآلاف الذين آثروا البلاء وعانوا مرارة السجن فكتب حروف كتابه بدمه ليقدم تجربته للتاريخ لتكون رفداً للأحرار على عريق الحرية الطويلة وكذلك لتكون وثيقة التاريخ الذي سيكشف الخبيث من الطيب .

ان مسؤولية الناشر في هذه المرحلة المضطربة من تاريخ العروبة والاسلام ان يقدم المادة الفكرية القادرة على إزالة الغشاوة عن عيون النائمين و
ان احمد رائف في كتابه التاريخ السرى للمعتقل كان واحداً من القلة النا
ساحة الفكر العربي الذي قدم زاداً فكرياً على مائدة الحرية .

مطابع المختار الاسلا